alexandra.ahlamontada.com

منتدى مكتبة الاسكندرية









أمير الانتقام ... الحديث

alexandra.ahlamontada.com
منتدى مكتبة الأسكندرية

محمد مستجاب

سافر معوض وساب الغلب لأصحابه واللي معاه غلب ينام
به ويصحى به، وهي صفات مبكرة لأمير الانتقام
الحديث ... مع أني لم أكن أعرف أن اسمه: معوض.

البدائية... محاولة للإدراك

● ● كان المقدس بسادة " ننطقها بصادة، يرتكز بظهره على حائط معمل البيض الذي يمتلكه، ويظل ممعنًا في الذاهب والقادم، يرد التحية على العابرين حتى ولو لم يقم أحدهم بإلقائها، كان المقدس بصادة زاهدًا في العمل، يترك عملية تفريخ الكتاكيت وتسويق الناتج منها لإخوته وأولاده، يظل يداور الشمس ليتقي حرارتها من مكان ظليل إلى آخر – حول حوائط المعمل – في كسل وخيم.

لكنه، حين يتجمع أفراد حوله يشاغبونه ويشاكسونه ويستثيرونه، تشتعل فيه شرارة النشاط، وبالفعل يشمر عن أكمام جلبابه الترابي الواسع وينادي على أي واحد يكون داخل المعمل كي يحضر له العناصر اللازمة: ديك، ودجاجة، وما تكاد سيقان الديك والدجاجة تصل إلى الأرض أمام جلستنا الصبيانية العابثة حول المقدس بصادة، حتى يندفعا طائرين على الأرض في سرعة مذهلة، حيث يهربان إلى غابات النباتات المجاورة في الحقول ● ●

حينئذ، يقوم المقدس بصادة مستندًا على الحائط في معاناة الكسول الذي يكاد يكون كسيحًا، ويظل يتمتم ويقرأ

ويعزم، وبعد وقت صامت مشحون بالريبة والسكون والتوقيع، يأتي الديك منسلا، وتأتي الدجاجة منسلة، ليقفا أمام المقدس بباوي في امتثال وقد انحنت رأسهما خضوعًا.

قلنا – نحن صبيان وفتيان ذاك العصر – إن المقدس بصادة كان يدرب الدجاجة والديك على هذا السلوك، جائز جدًا، وهذا ما نراه الآن من فناني السيرك على شاشة التليفزيون، في استعراض مذهل لقدرتهم على الهيمنة على الحيوانات المدربة على تصرفات مثيرة وقلنا – وقد ثبت لنا بعد ذلك أن هذا الكلام غير صحيح بالمرة – نحن صبيان وفتيان منطقة معمل الكتاكيت، – أيامها – أنه لا يمكن لواحد نصراني أن يكون ذا سطوة على الحيوانات، ومعلوماتنا – في ذلك العصر– كانت تعتقد أن الشياطين والحيوانات لا تستجيب لغيرنا نحن المسلمين تحت وقع نصوص الأدعية والأحجبة والتمائم، حتى أن أحدنا من باب التعصب الحاد – هاجم المقدس بصادة ليتهمه بخفة اليد، لقد اختلط علينا الأمر الذي يفسر إخراج الكتاكيت من الأنف، والدجاجة من المنديل، بالأمر الذي يتم فيه الهيمنة على ديك ودجاجة ليخرجا من أدغال الحقول فيقفا في استكانة وامتثال أمام

المقدس بصادة، والذي اتضح لنا – خـلال احتـدامنا فـي الحديث عن معجزاته – أنه نصاب، المقدس بصادة لم يقدس – أي لم يذهب إلى بيت المقدس ليـؤدي واجـب التقـديس المناسب للملة التي ينتمي إليها – وكان هذا الاكتشاف قد أثار ضجيجًا صغيرًا بيننا وبينه، وبالتالي فقد زعل بصادة – لـم أقل المقدس – وداهمه إحباط واضح، توقف عن الرد علـى أية أسئلة أو تحايًا.

غير أن بصادة عاد فجأة إلـى نشـاطه وحماسـه، وتجمعنا حوله لنرى ما أثار فينا دهشة طاغية: قالب طـوب ني "في الفصحى قالب طوب أخضر أو لبن" ثم قالب طـوب أحمر، المسافة بينهما تصل إلى نصف المتر، وظل بصـادة يعزم ويقرأ ويصرخ في القالب النـي، وإذ بهذا القالب يتحرك، مرة أخرى: يتحرك على الأرض حركة واضحة، حتى يصل إلى القالب الأحمر، ثم يندفع إليه ليصكه، يتراجع للخلـف – القالب النيّ– ويعود فيخـبط القالـب الأحمـر الصـلب ... ليتحطم، ويظل القالب النيّ جامدًا في الساحة علـى أشـلاء القالب الأحمر الشهيد.

لم يكن المقدس بصادة وحده القادر على فعل ذلــك، غجرية تأتي وقت أن تأتي حاملة الباقوطـــة – أي المقطـــف الصغير – الذي تحمل داخله أدوات ضـــرب الـــودع، كـــان وجهها – بعد أن يكفهر ويتلوى ويتغضن، وبعـــد أن تتســـع عيونها وتتغلق ثم تتفتح عن آخر مدى لنـــوع مـــن الحـــول الأحمر، أي بعد أن يوشوش أي واحد مـــن الـــراغبين فـــي وشوشة الدكر وإلقاء الودعة على قماشتها، تبدأ الغجرية فـــي البرطمة والصراخ وتناثر رشاش السوائل من فمها، وخـــلال هذه الحالة العصبية تكشف عن مستقبل صاحب الوشوشـــة، ومع شرح تفاصيل هذا المستقبل الغامض – تعـــرج علـــى حاضره وماضيه لتعلن أنه لص بهائم، أو سارق كيزان أذرة، أو أنه شاذ الأغراض مع صغار الـــذكور، أو أنـــه منعـــدم الذكورة أصلا، هذه الغجرية – التي أثارت فينا دهشة حـــول قدرتها أن تعرف ما قد يكون خافيًـــا عنـــا فـــي الماضـــي والحاضر، وما هو سيظل خافيًا عنا فـــي المســـتقبل، هـــذه الغجرية التي تأتي إلى قريتنا في أي وقـــت دون أن نســـعى إليها، كانت بالتأكيد تهيمن على نوع من أفـــراد المخـــابرات أو المباحث لتعرف ذلك، لكننا لم نصـــل إلـــى إجابـــة فقـــد

وجدوها قتيلة ذات صيف ملتهب بين أكوام البــوص خلــف مبنى السلخانة، ومازلت أدور وألف حول قصتها لكني – في كل مرة أود كتابتها أتوقف، إنها شكل مــن أشــكال قصــة الشيخشيخة ليوسف إدريس.

بدأ ذلك كله – ولاسيما الذي حدث في بواكير حياتي – يداهم استدرجات الماضي خلال مثابرتي العصرية ســعيًا إلى العلم: التفكير والتخطيط والاستنتاج ووجهة النظر، مــع أهمية التوقف عن الغيبيات والخرافات، أعرف أن يكون ذلك في نظم الإدارة والتشغيل وجرد المخازن وإصدار القرارات والتصنيع والتصدير والاستيراد واستخدام المعامل وترتيــب الأولويات، لكني ماذا أفعل في الكتابة؟ لا أستطيع أن أكتــب لمجرد الرغبة في الكتابة، الاستحمام والتطهــر عنصــران ضروريان للدخول في عالم الكتابة، إنها نظام نفسي شخصي يمكن إدراكه علميًا، فماذا لو أن عيني رفــت أو أحسســت برغبة عارمة في هرش كفوفي بما يعني أن شــيئًا ســوف يحدث؟؟ فماذا أفعل إذن إذا أعلنت الآن أن العين التي ترف، والكف التي أهرشها إنما هي تجربــة مريــرة – أو جميلــة جدًا – لي، إذ كثيرا – بل في كل مرة – يحدث ما لا أتوقع.

ذات مرة ظلت عيني ترف، انتظرت خطابًا في الصباح، ثم زائرا في الظهيرة، ثم أي خبر مرعب آخر النهار، فظلت عيني ترف، وبعد أن استغرقت في النوم ليلا، قامت ابنتي بإيقاظي، كان الصديق الياباني توكانو – الغائب عني من سنوات حتى أني نسيته – ينتظرني خارج حجرتي، وبعد منتصف الليل، وفي تهذيب شديد أعطاني كمية دولارات – ليست كثيرة جدًا – ثمنًا لقصة لي نشرها في اليابان، ومضي ... فجلست وسط الشقة أسعى بين عيوني الجامدة دون أن ترف، وكفي التي توقفت عن إثارة رغبتي في هرشها.

وعلى ذلك فإن الانشغال الشديد بالعلم سوف يدفعني للإلحاح على رفض هذا العالم الذي يبدو متخلفًا بما فيه من ظواهر غيبية – وغبية، فالعقل المعاصر الذي أنتج من أدوات وآلات الكترونية، ومن تحكم من بعيد، ومن إنجازات تداهم العقل المعاصر نفسه، يريدني أن أمتثل له تاركًا تلك الأمور الأخرى – غير المبررة، أو غير المفسرة – جانبًا، وهذا يعني – في أخطر معانيه – تجفيف العقل من صبيانيته المبكرة، والإلحاح العلمي على مداركه، فكيف إذن يتسنى لك

أن تشعر بتلك السعادة الغامضة المبهمة مقابل إعــلاء شــأن العقل – في الفنون بالذات؟؟

كان ذلك – كما هو واضح – اضطرابًا لعقلية واحد مثلي لم يستوعب التفكير العلمي، ذلك أنني مازلــت أرقــب واحدًا من الرفاعية وهو يتمتم ويدعو ويصرخ كي نراه قادمًا من العقد – أي السطح – وهو يتلوى على الحائط: إنه ثعبان، ذلك الثعبان الذي يظل يسعى حتى يلتف حول نفسه أمام كف الرفاعي المنهمك في إصدار أوامره وأدعيته وتعليماته؟؟ في صحراء أسوان كنا نعاني – أثناء العمل في مشــروع الســد العالي – من ثعبان قصير معقوف هــو الطريشــة، كانــت الطريشة – أي تلك التي لا تسمع ولا تخضع لأحــد: تقفــز فجأة مندفعة من الأرض إلــى الجســد مباشــرة، وعقرتهــا السريعة المباغته في أي مكان في جسد الضحية تســتوجب الاستئصال فورًا، نعم: كان ثمة عدد من ضــحايا الطريشــة يعمل معنا: مبتوري الأيدي أو السيقان، وعندما عشنا فتــرة بالقرب من رجال الحدود – الهجانة – عرفنا أن أخطر مــا يواجهونه: الطريشة والذئب الجربان" الذي يــوازي الكلــب السعران في مفاهيمنا"، ولذا فقد كان لازمًا أن يقــوم أفــراد

يرتدون ملابس واقية على الرءوس "تذكرك بملابس مطفئ الحرائق" بدق الصفائح وإشعال نيران البوص والأغصان وإطلاق سحب الدخان في أي موقع لأي محجر جديد مزمع افتتاحه، والقصد بذلك طرد أنواع الثعابين – الطريشة بالذات – من الموقع.

لكن أمرًا آخر طرأ، ذلك أن الطريشة كانت تهرب إلى عمق الرمال وبطنها دون سطحها، ولذا ظهر أفراد من أبناء النوبة وأسوان وقنا لهم دراية في استخراج الطريشة، كانوا أصلا من هؤلاء القادرين على تتبع وتحليل الأثر والذين يطلق عليهم: العسس، يظل الواحد منهم يمعن في الأرض والصخور وجذور النبات ليستقرئ ما يكون كامنًا فيه، نحن المتعلمين – لا ندرك ذلك، وننظر حيث ينظرون فلا نرى شيئًا، وكان الواحد منهم – حين يقف مشيرًا على الجميع بالتزام الصمت – يكاد يكون صافيًا رائقًا ترى العالم كله من جسده البللوري، ويظل يتمتم ويقرأ حتى تخرج الطريشة من تحت كويمات الرمال، لها قرون شريرة وعيون شريرة، بعضنا كان – حين يراها – يتراجع للخلف مغمي عليه.

هل كل واحد يمكنه أن يتدرب ويتمرن ليفعل ذلـــك، ويصل إلى هذه الدرجة المعجزة من الشفافية؟ وبعـــد ذلـــك بسنوات كنت وصديقي المهندس وجدي بكـــر صـــديق فـــي إجازة بالقاهرة، وفي جلسة هادئة على قناة مليئة بالنباتات في حلوان – جنوب القاهرة – جاءت امرأة غجرية وصممت إن تفتح لنا باب معرفة البخت، وأخذتنا روح التسلية والمداعبـــة بعد أن وشوش صديقي الودع، وبعد مداورة ومناورة بينهـــا وبين كلابها – الاسم المجازي للودع – نطقت اسم صـــديقي دون تحريف واسم والدته بعد ذلك، ثم اسم أخوته – أطال الله في أعمارهم – وهم خمسة، ثم أخبرته أنه لن يتزوج الفتـــاة التي في باله، وعندما ضحك صديقي ساخرًا، أخبرته أنه لن يتزوج أبدًا، وجدي – صديقي – لم يتزوج حتى الآن، وجاء دوري، ويبدو أن لكل واحد منا رقمًا كوديًا تنفتح به مغـــاليق ماضيه ومستقبله عند ضاربات الودع، كان ذلك واضحًا فـــي طريقة التعديل التي قامت بها المرأة، في تعاملها مع الـــودع، وبعد دقائق من وشوشتي للدكر نطقت اسمي واســـم أمـــي، وقالت إنني ابن العصيب "وهو مصطلح للذي سوف تواجـــه حياته أزمات عصبية متوالية"، ثم قالت إنني ســـوف أنجـــب

أربعة، وأنني سوف أتزوج اثنتين، وبعد خمسة وثلاثين عامًا من هذه الواقعة الطريفة: أعلن على رءوس الأشـــهاد أننـــي بالفعل أنجبت ولدين وبنتين، وقد تزوجت مرة واحدة، ولـــن أتزوج مرة أخرى حتى لو انطبقت السماء على الأرض.

في بغداد عام ١٩٦٩ – أي قبل أن أدخل عالم الكتابة مباشرة – رأيت هنديا في ملهى صيفي – بدون سقف – يلقي بالحبل إلى أعلي، ونظل نمعن: كيف يحدث ذلك؟ أي ما الذي يشد الحبل إلى السماء؟ وقبل أن تغادرنـــا الدهشـــة، يتســـلق الرجل الحبل، ويظل يصعد حتى يغيب في السماء، قد ســـبق لي أن قرأت في كتاب أحد المستشرفين عن حادث مشـــابه، يطارد فيه مثل هذا الساحر ولدًا، فيضطر الولد إلـــى تســـلق الحبل هربًا، ويصعد خلفه الساحر، وبعد أن يختفيا في أعلى الأعلى، تبدأ تتساقط أجزاء من جسد الصبي: الرأس والأذرع والسيقان، ثم ينزل الساحر فيبكي ويصرخ ويجمع الأجـــزاء ويعيد ترتيبها، فإذا بالولد يعود حيًا، لا إله إلا الله، أقول لقـــد قرأت ذلك ولا أود أن أستخدم عقلي في رفضه أو قبوله، ذلك أن هذه الأمور يمكنها أن تصطرع مع العقل حتى تصـــرعه تصديقًا أو تكذيبًا، إن ولدًا – صبيًا – لم يكن تتجـــاوز ســـنه

العاشرة، في استطاعته، وفي أقل من دقيقة، أن ينطق بنــاتج الحسبة مع أنها ذات أرقام متعددة بأعداد متعــددة، مثــل أن تقول له ما حاصل ضرب ٧٤٢٨١٧ × ٣٨٤٢، فإذ به يعلن النتيجة بسرعة مذهلة: ٢٨٥٣٩٠٢٩.

" لقد قمنا بعملية الضرب هذه علــى آلــة حاســبة الكترونية"، وكنا نتسامر ونمرح ونبرز دهشتنا لهذا الصــبي أثناء لهونا في نادي التجديف بأسوان عام ١٩٦٤، كمــا أن سائقًا سقط بسيارته الروسية " لوري نقل: إلى بطــن النيــل وغطس بها، وجاءت القوات المسعفة لتخرج الســيارة دون سائقها، هذا الذي اعتبر مفقودًا لكنه ظهر في اليــوم الثالــث على وجه المياه، وفور انتشاله تمهيدًا لإجــراءات تشــريحه اكتشف أحدهم أن قلبه لا يزال يعمل، وتم إنقاذ الســائق دون أية إجابة عن علامات استفهام تقف حول غريق يقضي ليلتين على الأقل تحت الماء أو فوق الماء، وظل هذا السائق معنــا حتى انتهينا من بناء السد العالي دون أن تتاح له فرصة لكي يسوق أي سيارة من أي نوع، العقرب التي تسير هادئة وقــد أرخت زبانها حينما تقترب من شخص يحمل حجابًا يحصنه ضدها، والتجربة منتشرة جدًا في الصعيد والدلتا، ويطلقــون

على حامل هذه الحصانة التي لا يصدقها العقل: المحجب، المرأة التي وردت حكايتها – ذات مرة – في مجلة المختار، وكانت قد فقدت ابنها في انهيار منزل حتى أنهم لم يعثروا على جثته، ومرت السنوات، وتزوجت هذه المرأة، وأنجبت، ثم لازمت الفراش في شيخوختها، وذات ليلة طلبت من أولادها – ومعظمهم فتيان كبار – أن يذهبوا بها إلى مدينة معينة، في ولاية بعيدة، وظلت تبكي حتى استجابوا لها، وهناك طلبت أن يحملوها على المستشفي لتجد ابنها المفقود من عشرين عامًا، كان جريحًا وجاءه إحساس أن والدته سوف تزوره اليوم، إنه ينتظرها، وعشرات ومئات الحوادث التي نقبلها دون أن نستطيع تفسيرها، ويستحسن ألا نفسرها.

على الأقل ليظل في عقلنا جزء طازج يمكنه أن يطارد السباع، وأن يتشاجر مع السلاحف، وأن يشارك الملائكة الطعام، وأن يزحف في شقوق الثعابين، وأن يداهم بطون الغيلان، وأن ينام تحت شجرة وارفة، في غابة شاسعة، لتعثر عليه ظبية فترضعه وتشرف على تربيته، ليصبح بعد ذلك حي بن يقظان أو روبنسون كروز أو لص بغداد أو طرزان أو الرجل العنكبوت أو الرجل الذئب

أو أم أربعة وأربعين أو كلب آل مستجاب أو أبو رجل مسلوخة أو رضوان خفير الجنة أو التنين ذلك المخلوق الذي يجمع بين مئات الزواحف والطيور، وله مخالب أسد وأجنحة نسر وذيل أفعى، ثم لا بد من انبثاق النيران المدمرة من فوهته المروعة، حتى يمكننا أن نستيقظ، وندفع بشيء من ذلك الخيال البدائي العظيم إلى فنون القص والشعر، تحريكًا لما أصابها من منطق منظم ناجم عن الإنصات الشديد لما نعتقد أنه متطلبات العقل العلمي الذي استأثر بخيالنا فيما لا أدب فيه.

النص الكامل لحكايتي مع
سنيورة أم زُقْم

●● لم يعد ممكنًا أن نتحمل كل ذلك، لا سجائر ولا حسن كيف "معسل الجوزة"، ولا طعمية، كما أن ثلاثة أفلام مضت متوالية – كل فيلم يساوي أسبوعًا – دون أن نراها في سينما قرشي بالبندر، كانت الدميرة "موسم الفيضان النهري" قد غطت كل المساحات الشرقية، ولم يعد ظاهرًا فوق سطح المياه سوى شواشي النخل والشجر، وقامت الحرارة الشديدة بإزهاق الأعصاب لنعتصر عرقًا، وفي المناطق الغربية التي لا تلحقها مياه الدميرة ظلت الأرض تنبت ما لا ثمر له، لا خيار ولا قثاء "عجور" ولا طماطم، إنما هي مساحات تم حصد قمحها من أسابيع فظلت خاوية انتظارًا للزراعة المقبلة، أو مساحات أخرى انشغلت ببواقي البرسيم الذي دكنت خضرته ومالت إلى الجفاف، ويترتب عن كل ذلك أن معظم البيوت تعيش خلال هذه الحقبة الضاغطة على المخزون من فصل الربيع: بلاليص اللفت، والعسل الأسود، والجبن القديم مع دوام سلق الباذنجان الأسود

أو قليه، وحتى الأبقار والجاموس تعاني من انخفاض منسوب اللبن، هذا دون التنبيه إلى أن مزروعات القطن - التـــي لا نميل إلى زراعتها قريبًا من القرية - لا تـــزال تنمـــو فـــي طريقها للإزهار بعيدًا قرب بحر يوســـف، ثـــم إن البطـــيخ لا يزرع في زمام قريتنا، تخصصت فيه قرية أخـــرى هـــي "بانوب ظهر الجمل" لأن بلدتنا تتعالى على زراعته فتركتـــه للقرى الأقل شأنا دون أن نغفل عن حقنا في زيارة أقاربنـــا هناك، في هذه الفترة بالذات، زيارات مكثفة تنتج حمـــولات مجانية من البطيخ، أخوال أمي كانوا كرماء فـــي الصـــيف، نحن لا نتذكرهم في الشتاء● ●

أول من انتبه لمسألة سنيورة هو عبد الحارث توفيق مع أنه من بحري البلد وليس صديقًا دائمًا لنا، كنا خـــارجين من جامع الأمير سنان فور ظهر الجمعة، الجو حار يصعب التحرك النشط في اختناقه، والقحط الذي داهمنا أوقف نشاطنا الذي يتم تمويله من اغتصاب دائم لمنتجات الحقـــول، حتـــى البرسيم الذي كنا نحمله محشوشًا إلى السويقة لبيعه: لم يعـــد تصلح بقاياه لذلك، ونحن نتسكع خلف الجامع - أي في تلـــك البقعة التي أنشأ عليها - فيما بعد - محمد حسن شديد مأمور

مركز ديروط – المنتزه الشهيرة، والذي كان متعة للعيـون بظلاله وزهوره، أي بين ظلال أحجار وطوب وبقايا مقـابر مهجورة، قال عبد الحارث توفيق: أنظـروا، فنظرنـا ... كانت سنيورة تسير في وهن، عجوز مرهقـة تحمـل فـوق رأسها صرة من قماش كالح، قال واحد إنها تحمـل العـيش والطعمية، وقال واحد إنها تجيد صناعة البرغل، أي حبـوب القمح المعالجة بالماء الساخن كي تصلح لسمك الفـرن فـي الصحاف، وقال واحد: إنها تتـاجر فـي النخالـة وحبـوب البرسيم، وقال واحد: ملعون أبوها، وقال واحد: عندها كنـز فلوس في الحارة، وهيمن علينا الصمت.

كان بيت سنيورة أمام الجامع مباشرة، بينهما شـارع غير منتظم، شجرة وارفة تغطي الساحة الصغيرة الفاصـلة، يميل أهلنا أن يقضوا أوقاتًا عديدة تحت ظلالها للسمر ومسك السيرة انتظارًا لحلول موعد صلاة المغرب، والـذي كـان صوت الشيخ عبد الباقي يصدح في أذانه، المـؤذن عجـوز موغل في العمر، وكانت شحنات صوته القديم تنطلق من فمه الضخم ضجيجًا عذبًا بالغ الخشوع، ولم يكن يفوتـه فـرض واحد.

وعندما تحركنا – في تلقائية – ودون أدنى ترصد أو تربص، كنا قد وصلنا إلى تلك الشجرة، وكانت سنيورة تفتح بابها، وعندما ضغطت عليه – بيدها – فانفتح مصدرًا صوتًا خشنًا مقلقًا، كنا قد أحسسنا أن سنيورة تستحق الاهتمام، وكانت جماجمنا قد انفتحت على تلك الحكايات المتناثرة التي تمتلئ دائمًا بما تحتفظ به العواجيز – النساء بالذات – من كنوز الفضة والذهب ورزم الأوراق المالية، سنيورة كانت تعيش وحيدة، ولها دراية مشهود بها في علاج النعاج والماعز، وهي التي – فيما نذكر – التي يمكنها أن تعرف مدى خصوبة أي معزة وهي لا تزال "سخلة" أو حملا، كما أنها مارست بعض الوقت إخصاء الجديان، سنيورة تصنع للمصدورين المصابين بأزمات الكحة: أفضل كوب حبوب الحلبة التي تناولها جمهور كبيرة على الريق، وفلوسها – خلاصة كلامنا بعد تلك الظهيرة – تحتفظ بها في سحارة ضخمة مثل تلك التي تعددت أنواعها في مغارة علي بابا، بعضنا أقسم أنه – حين رأى سحارة سنيورة – كاد يقع انبهارًا بسبب النور المشع منها، تضاحكنا وتبادلنا كلامًا بذيئًا يصيب أمهاتنا وآبائنا، ثم اشتدت الحرارة رغم استطالة

ظلال البيوت، فأحسسنا بالإفلاس يضغط على حواسنا فانسحبت الظلال من جديد، قام – حينذاك – واحد من كبار الجالسين المنتظرين حلول المغرب – فنهرنا، وصرخ فينا: عيب المهاترات أمام بيوت الله.

لا أعرف حتى اليوم من الذي اقترح التسلل إلى بيت سنيورة تفريجًا لأزمتنا الطاحنة، قد يكون عوف أبو ثابت أو رمزي مغاريوس أو مدني أو جريدة أو محمد توفيق "وهو غير عبد الحارث توفيق الذي ليس من منطقتنا قبلي البلد " أو فخري أبو محمود أو مصطفى عبد السميع، لكن الأمر تبلور في الدماغ بسرعة، إننا نعرف عددًا من عواجيز القرية يمارسن – ويمارسون – الربا والتسليف بالفائدة " الفايظ " ويحتفظن بكنوز في السحارات، الحاجة فجرة "مؤنث فجر" غير أن أولادها الخمسة المتزوجين يقيمون معها في حصن ضخم، الحاجة فطيمة – لكن خالتي أم عوف تقيم بأولادها معها، الحاج عبد الحي والحاجة شفاء "وهما بلا إنجاب" ويتاجران في الحبوب لكنهما بالغا الثراء والترف، الذهب في معصم الحاجة شفاء يلوي عنق رضوان حارس الجنة ... سنيورة هي الأفضل والأنسب.

لم تكن سنيورة تخرج من بيتها كثيرًا، كنا نرقبها خلال حركتنا المتواصلة لأداء الصلاة في كل الأوقات حتى مطلع الفجر، لها ابن يرعى الغنم اسمه " زقم "، والزقم أيضًا يطلق على صغار الفيران، ونرى زقم كثيرًا على شواطئ الجداول وبين مساحات الأرض الخاوية دون زراعة، كان طيبًا يميل إلى ملاطفتنا، ولقد مرت سنوات طويلة تتجاوز الأربعين عامًا – وتقارب الخمسين – ولا يزال زقم – وقد أصبح كبيرًا ومسنًا – شديد الحرص على تحيتي وملاطفتي فور أن يراني جالسًا أمام بيت صابر مستجاب – حتى اليوم ... لكن زقم لا يعرف حتى الآن ما كان يدور في عقلي إزاء سنيورة أمه، هذه التي قررنا مداهمتها دون حساب له بالمرة، فلم يكن يقيم معها، ربما – كعادة أهلنا في الريف – كان يقيم في موقع آخر موروث وخشوا أن يستولي عليه باقي الورثة، لا أعرف لكن سحارة سنيورة كانت تنادينا، وكنا قد قضينا سبعة أو ثمانية أيام في مراقبتها، حتى جاءت اللحظة: ساعة الصفر.

أول مشكلة توقعنا مواجهتها هي فتح الباب عنوة، ودون ضجيج بالطبع، ولذا فقد أحضر لنا رمزي مغاريوس

– " الذي أصبح قسيسًا بعد ذلك لفترة ثم هجر السلك الكنسي ليعود مثلي ومثلك" – قضيبًا من الحديد يصلح حشــرة بــين الباب والحائط فيخلعه، وكان مسجد الأمير سنان قــد أغلــق أبوابه منذ انتهاء صلاة العشاء، ولم يعد في البقعــة ســوانا، والليل ضاغط بظلامه القروي، الذي كان يضاء – أيامهــا – بعواميد تحمل كلوبات متناثرة في الشوارع الرئيسية التي يقيم فيها الأعيان عادة، تركنا واحدًا أو اثنــين يرقبــان الموقــع، واقتربنا من الباب، وبدأ بعضنا يضغط في رفق عليه، كنــا نتحسس الباب تمهيدًا لحشر العتلة الحديدية بينه وبين الحائط، لكن، والمذهل، الباب: انفتح، تجاوب تحت الضغوط المبكرة بسرعة لا تتناسب مع توقعاتنا بالمرة، انفتح البــاب ليصــنع مفاجأة تكاد تكون دعوة واضحة أن الأمور كلها تسير حسبما نبغي، بعد ذلك بسنوات – إشارة إلى سهولة فتح الباب غيــر المتوقعة – رأيت الفيلم الأمريكي الذي كان بطلــه الممثــل الكوميدي بوب هوب، كان في ظروف تحتم عليــه مداهمــة خصمه في منزله الكائن في البراري، والمثيــر للمــرح أن تشكيل بوب هوب الجثماني يحول بينه وبين أن يصبح بطلا شجاعًا مسلحا بمدفع يتسلل لمداهمة هذا الخصم العنيد الظالم

الشرس، وعندما وصل بوب هوب – متسللا – ومسـلحًا – إلى الباب، رأى شراعته العلوية المصنوعة مـن الزجـاج، الأجيال الجديدة في بلدنا لم تألف هذه الشراعة الزجاجية فوق الأبواب والتي تلاشت حاليًا، المهم أن بوب هوب – ومعـه بندقيته – هابر وثابر، ثم صعد فوق ظهر جواده، حتى وصل إلى الشراعة، فظل يعالجها كي تنفتح، لكنها ظلت صـامدة، فلم يجد بدًا من تحطيمها، فكاد صوت التحطيم يسقطه أرضًا، لكنه ظل يحاول حتى اخترق الشراعة، وما كان ينـزل مـن الناحية الأخرى، حتى فوجئ، بقطة تتثاءب وتموء وتحتـك بالباب بظهرها لينفتح في سهولة...!!

كان باب سنيورة قد انفتح فور الضغط الأولى عليه، فور التقاطنا الأنفاس أيضا بدأنا نخطو في حـرص داخـل البيت، كنا قد رأينا تكوينـات المـدخل – مـرارًا – أثنـاء المراقبة، حيث يليه مباشرة سلم خشبي، لكننا رأينا سـنيورة مستغرقة في نومها على الأرض مباشرة، تحت غطاء مـن الوبر الخشن – لاحظ أننا في جحيم أغسطس، ومصباح بـلا زجاجة يلقي بضوء خافت وكليل من فوق رف خشبي متشبثًا بالحائط، أنفاس سنيورة كانت عالية ومتقطعـة، وبجوارهـا

مباشرة ورق كرتون قديم عليه أوان غير نظيفة: حلة وكوز، ثم طاسة بها بقايا، كان أحدنا قد تجرأ ورفع شعلة المصباح بالمسمار الجانبي الذي يغوص في الأدران، وعلى اليمين كانت السحارة، الصندوق السحري، الأمل المنشود ... صحيح أنه كان صندوقًا صغيرًا كالحًا، لكن: من قال إن الكنوز تحتاج إلى صندوق ضخم؟

غير أن سنيورة تحركت، الله يخرب بيتك، تحركت تحت الغطاء الثقيل فازداد تنفسها وضوحًا وتقطعًا، لم تتحرك فقط، بل أخرجت ذراعًا، تجمدنا في مواقعنا، كانت الكارثة تدق الطبول، أخرجت ذراعها وقالت بصوت مضعضع: يا رب، ثم قالت بصوت ممزق كلامًا لم نتبينه، هممنا بالاستيلاء على الصندوق وحمله إلى الخارج، أحسننا بكارثة، عاد صوت سنيورة يعلو، متقطع لكنه يعلو، كانت تتصت قليلا ثم يعود تنفسها لنوع من الحشرجة، بعدها تتجمع قطع الصوت، " زقم " إنت جيت، ثم صمت، مالنا نحن وهذه اللحظة المرعبة، بعدها أخرجت سنيورة ذراعها الأخرى، وخرج رأسها ذو العينين المغلقتين، والفم الصغير الناشف: شوية مية، أسقيني يا زقم، لكن كل واحد منا ظل يمعن في

الآخر، وانداحت عيوننا من وجه سنيورة المتغضن الشـاحب إلى حيث الكوز، فتحرك أحدنا – في حركة مستهينة وكأنـه لن يهتم بما يحدث – ووقعت عيونه على الكوز، تناول الكوز فوجده فارغًا، كان صوت سنيورة لا يزال مفتوحًـا تاركًـا الكلمات المحطمة تجمع كتلتها بعيدًا عن الشفتين، حينئذ مـلأ أحدنا الكوز من الزير، وتجرأ أحدنا فرفع نـور المصـباح أكثر، لكن رأس سنيورة ظلت في موقعها، حركتهـا يمينـا وشمالا، دون أن تفتح العينين.

وبشجاعة نادرة اقتربت من سنيورة، رفعـت عنهـا الغطاء، فإذا بالعرق يملأ تفاصيلها، جلسـت خلفهـا علـى الأرض، ورفعت رأسها على حجري، وتناولت كوز المـاء وحركته بشكل يناسب تكوين شفتيها الناشفتين.

فبدأت تمتص الماء، وتمتص الماء.

ثم اندست تحت الفرش الغليظ مرة أخرى، وقالت في ضعف أقل جفافًا: اعمل لي شاي، شاي يا زقم، فتحرك ثالث يبحث عن إناء الشاي.

حينئذ أصبح مناسبًا أن نجلس في هدوء حولها، دون أن نتبادل كلمة واحدة.

القصص القصيرة تنتهي عند هذا الموقف، والذي لم نغادره حتى شربت سنيورة الشاي، وطلبت عصير ليمون من هذا الليمون الناشف المتناثر حول فرشتها، حيث نسينا تمامًا الهدف الأسمى الذي تسللنا إلى البيت من أجله، فظل الصندوق الصغير في موقعه لا يجرؤ واحد منا أن يقترب منه، حتى جاء الصباح، وسنيورة لا تزال تنادينا باسم ابنها "زقم".

ما يعرفه أخونا "زقم" أن سنيورة – أمه هذه – قتلت بعد ذلك بأعوام، خنقوها بحبل ليف وعلقوها في السقف، وأخذوا الصندوق.

والقرية كلها وقفت سادرة دون أن تشي بالقتلة، مع علمها المؤكد أن الذين قاموا بذلك ثلاثة من رجال الأعيان المفلسين المتسكعين.

وقد انتقمت السماء منهم جميعًا، بالشلل والتسول والاحتياج وإنجاب مجموعة من الصبيان المعتوهين الذين تسيل ريالتهم على صدورهم.

عن الستين عاماً الأولى من عمري: ((قل إن شاء الله))

● ● في هذه الأوقات التي تتسلى فيها – يا صديقي – بقراءة هذا المقال، تقوم الحاجة فاطمة بسحب ملف خدمتي من موقعه الكامن في إدارة شئون العاملين بمجمع اللغة العربية، تمهيدًا لاستصدار القرار المناسب لإحالتي للاستيداع: أي دخولي عالم التقاعد الوظيفي، أي تحويلي إلى موظف سابق يتقاضى معاشًا حكوميًا اعتبارًا من ٢٣ يوليو ١٩٩٨، بمناسبة بلوغي – رعاك الله – سن الستين، تلك التي تؤهلني – مثل غيري – للانضمام إلى جوقة لاعبي الطاولة على قهوة أحمد بتاع الجاز في العمرانية، أو قهوة زهرة البستان وسط القاهرة، الأولى نتكلم فيها عن الولد الذي سحب بندقية وأردى بها عددًا من أعدائه، أو سيقان البنت التي وقعت في دباديب الولد نفسه، أو المساحة المكشوفة ما بين الصدر والأوراك للبنت الأخرى التي يدور حولها الصراع الدامي، وفي زهرة البستان سوف يكون الجدل طاحنًا بين مناصري الواقعية السحرية والرمزية العبثية، مع أهمية الصمت الضاغط – والمتوتر – بين إبراهيم حسن المصور

وعبد العزيز موافي الشاعر – حول الطاولة أيضًا، مع عدم استبعاد ضجيج أنصار الجريون (مشرب) والإتيليه (مجلس) واستيلا (مشرب يميل إلى الضجيج) ● ●

الأمر بالنسبة لي سوف يختلف – إن عشت، فلم تعد المقاهي تستقطبني، الرغبة في التجوال والسفر والانتقال أصبحت أقوى، والخلو إلى النفس في المساحات المتسعة من رمال أو مياه أو نجوم سماء حلت محل الضجيج القديم، كما أن الجدل حول ما يجري – في النفوس وخارجها: قراءة واستيعابًا وإدراكًا صنع تواصلا مع أفراد بعينهم، لم يعد مريحًا أن أقع في جدل مع أي أناس يريدون أن يبدوا مثقفين لأنهم رأوا اسمي منشورًا في جريدة أو مجلة، إنهم يودون أن ينفوا عن أنفسهم الجهل الملون فيثبتوه – بذلك الجدل – ويؤكدوه، وليس هذا تعاليًا، إنما هو منطق نفسي يحول بيننا وبين التفتت، والعصبية، والتصادم.

كل هذا كوم وإحساس البني آدم منا باستشراف اللحظات الحساسة والحرجة المؤدية إلى التقاعد – المعاش – كوم آخر، فالستون عامًا الأولى من عمري – رعاك الله ورعاني – ليست أوراقًا في ملف تسحبه الحاجة فاطمة

أو قرارًا يوقعه رئيس مجمع اللغة العربية، وإنما هـــي هـــذا الامتداد الموغل في صحراوات وبيوت وأكواخ، والأحاسيس الناعمة حينما تتدفق طوفانًا في أنفاق محطة كهربـــاء الســـد العالي، أو حين تتلمس بوادر التهاب الشـــفتين المتـــوترتين لحظات الحب الساذج المبكر، أو حين أكون الموظف المتميز في شركة المقاولون العرب، الـــذي يوكلـــون إليـــه المهـــام المتميزة في بغداد وبيروت وبيريه – اليونـــان – ورومـــا – إيطاليا، ثم يقع رئيسي المهندس المتميز أحمد عبد الـــرحمن عوف – في احتكاك مع صاحب أو مدير الشـــركة عثمـــان أحمد عثمان، فيغضب رئيسي ويعتزل في بيته، وحينئذ أفاجأ بكل إدارة الشركة تحاول خلع كل التميز الذي أرتديـــه كـــي يتفرجوا على جسدي الريفي عريانًا – انتقامًا من المهنـــدس عوف، أو هذه اللحظات الصارخة بالشجاعة حين أتسلق جذع شجرة الجميز على ترعة الديروطية كي أقفز – طـــرزان – في المياه الصاخبة، أو تلك الرسائل العطشانة شوقًا عاطفيًـــا لتحملها بعد ذلك كتب مصطفى محمـــود – اعترفـــوا لـــي، أو تلك الدقائق الممتدة دهورًا حينما أتضاحك فيها مع قاتل له قضية جنائية في مكتب المحامي الذي كنت كاتبًا عنده، أو هذا

الحصار المروع الذي شارك فيه خالي الشاعر الناظر أحمد خميس وأعمامي، وعمتي فاطمة أم أحمد والشيخ ثابت حتى أتوقف عن التعليم كي أعمل لأساعد أبي الفقير الطيب الغلبان، والذي ظل ينتظر مساعدتي سنوات طويلة ومرهقة دون جدوى، وفور أن مات: انفتحت بوابة السماء، وخلال ذلك ساهم الجميع باتهامي بالبوظان والخسرنة والفساد، وهو ما جعلني أشعر بضرورة ألا يكون الواحد منا ألعوبة في أيدي الرعاع والسابلة وذوي الجماجم الشريرة، لا يصح أن يظل هؤلاء هم الأقوى والأذكى، ولاسيما أن هؤلاء بالذات مجهزون للانحناء – تقبيلا لكفوف الأقوى والأذكى، إني أراهم الآن – ومن بقي منهم، ومن ورث صفاتهم، ومن ظل سادرًا، وهم يتجولون ويتحركون تحت سطوة (الفشخرة) الكاذبة الملونة بألقاب ورتب ونجوم – كانت – على الأكتاف، تقاعدوا من زمن مبكر – رغم أن بعضهم من جيلي – وكانوا أصدقائي، يعيشون على هامش الفعل دون تفاعل، يقضون أكبر وقت في اجترار عالمهم الخاوي الخربان ذي المظهر المصطنع، مع الضحكات المختلفة إعجابًا بمواقف عادل إمام ومحمد عوض وفؤاد المهندس.

نعم هي الستون عامًا الأولى من عمري رعاك الله – والتي تمور بالحزن الكثيف في اليوم التالي لهزيمـــة يونيـــو ١٩٦٧، ثم في المظاهرات الحادة الهادرة المروعة مطـــالبين بعودة جمال عبد الناصر فور إعلانه التنحي أو الاعتزال، ثم هذه التيارات الحزينة المأساوية التي اجتاحت جوانحنا جميعًا – بعد ذلك بسنوات قليلة – حينما رحل هذا القائـــد الشـــجاع الباسل المخلص ولم يعدل من اجتياح الحزن للأفئدة ســـوى مشهد أبنائنا المداهمين لخط بارليف العتيد في الضفة الشرقية من قناة السويس، كان المشهد يزهو فوق أي مشهد عشـــناه، حتى ولو جاءت الأحداث بعد ذلك بغيـــر مـــا نحـــب، ومـــا اصطلى به القلب من حزن غامر وإحساس مـــروع باليـــأس واللافائدة فيما سمي بعد ذلك بثغرة " الدفرسوار" أي كوارث تلك التي اخترقت مفاصل جهازنا العصبي في تلـــك الســـنين المريرة؟ وكان الجثمان المحروق للمرحوم على عبد النظير عام ١٩٤٨ – في حقول البرسيم المكللة بالصـــقيع لا تـــزال ماثلة – ممزقة الرقبة – في كياني، وبعدها ثريا الجميلة بنت خالتي التي زوجوها في التاسعة من عمرها – وهـــي الســـن نفسها التي تزوج فيها أبي من أمي قبل ذلك بدهور.

لكن ثريا حملت مبكرًا، وفشلت الداية – المولدة القابلة – في توليدها مما دفعها إلى استخدام التبن والنخالة توسيعًا لرحم بنت خالتي النازف، والتي حملتها عربة الإسعاف في مشهد دموي، حيث قطعوها في المستشفي استخراجًا لجنين ميت، لا إله إلا الله، وكانت الآفاق تمتد في صحراء واحة كركر غربي السد العالي، وهي واحة مهجورة كانت – فيما يقال – معسكرًا للإنجليز في الحرب العالمية الثانية، وقد أتلفوا شجرها وسمموا بئرها كي لا يستفيد الجيش المصري منها، وكانت لافتة التنبيه بعدم استعمال مياه بئر هذه الواحة تؤكد ذلك، كما أن حرس الحدود – الهجانة – المنتشرين حول درب الأربعين يحذرون الجماعات العابرة بعدم الاقتراب من هذه المنطقة الخضراء الخربة، زرت هذه الواحة مرات فأزدحم بمشهد مأسويات كل العمر الماضي، والتي كانت – في كارثة من كوارثها – أن أجلس قريبًا من هذه الواحة كي أشهد غروب الشمس المتناغم مع الشجن القديم.

في حلقة من حلقات العمر المبكر ظللت أدب بين حقول قريتي، من أول منطقة البغيلي وترعة الإبراهيمية

شرقًا، ثم عبورًا على ترعة البدرومانية غربًا فبحر يوسف وغرب الجسر الممتد حتى حوض ظهر الجمل الذي تكاد الصحراء الغربية تلامس أكتافه، استوليت على ثمار الطماطم والخيار والكوسة ليلا، وظهرت لي العفاريت والذئاب والكلاب السعرانة والثعالب الجبانة، وذهبت مع صديق – قتل من زمن – إلى بيوت الغوازي في أولى محاولات اكتشاف طريق الآثام والذنوب التي تساعد في الندم وطلب المغفرة، ثم شاركت زميلا في اصطياد نعيمة بائعة الطعمية، لكن المؤامرة لم تثمر لأنها طالبت بحقوقها قبل أن تصبح لها حقوق، ثم هناك بنت خال أمي التي كانت تفخر بأنها لن تتزوج إلا صاحب مؤهل عال – من باب تحقيري وازدرائي، رغم أنه لم تطف أبدًا في بالي كأنثى جديرة بالاشتهاء، وقد ظلت البنت تستمتع بهذه النغمة حتى كبرت وأصبحت عانسًا تصلح للاكتئاب ثم الموت، وترتاح واحدة أخرى من قريبات أمي في حلقة من قصص الغرام الساذج، لكنها لم تلبث أن تزوجت وهجرت الوطن والزوج والابنة لتتزوج من أمريكي – وهذا لا علاقة له برموز الأدب السياسي المعاصر، عليك أن تراني عاملا بمعامل أبو الهول

للسينما بالدقي – الجيزة، أو مساعدًا لخطاط لافتات بشـــارع محمد علي، أو ناقلا لشحنة كسب (علــف البهـــائم) مـــن ديروط لبيعها خلسة في القوصية أيـــام أن كـــان المرحـــوم محمود عبد المالك مسئولا عن جمعية الفلاحـــين التعاونيـــة، لكن الأمور – كل هذه الأمور – تراجعت للخلـــف لتصـــبح ذكريات حينما أحسست بالتحقق فور نشر القصة الأولى لـــي في مجلة الهلال، نعم: في القصة الأولـــى، وكـــأن الدرجـــة الأولى هي كل السلم المرهق، والذي من إرهاقه لي أدخلنـــي المستشفيات وأفسد جهازي التنفسي وأحالني إلى راغب دائـــم في الجلوس وحيدًا، فقد أصبحت الكتابة فرحًا خاصًـــا لـــي، وبديلا عن الانتصارات المصطبية التـــي يطيـــب للآخـــرين الاستمتاع بها، وقد كنت فـــي عنفـــوان الســـعادة ورئـــيس الجمهورية – منذ ما يقرب من ١٥ سنة – يمنحنـــي وســـام الفنون والعلوم والآداب من الطبقة الأولى بســـبب حصـــولي على جائزة الدولة التشجيعية في الأدب عام ١٩٨٤، ثم هناك الاحتفالية الجميلة التي حدثت في أوائل العام الماضي حينمـــا فاز كتابي (قيام وانهيار آل مستجاب) بجائزة أحســـن كتـــاب قصصي في معرض الكتاب، وقد فاز كتابان آخران لكـــاتبين

أعضاء في مجمع اللغة العربية الذي أعمل موظفًا في إدارته، لكن المجمع احتفى، واحتفل بالعضوين دوني، مع أني أنا ابن المجمع ولست أديبًا عابرًا عليه، أو أديبًا حط على مطاره بعد أن تحققت له كل أهداف العمر الطويل، فقد دخلت المجمع عام ١٩٧٠، حيث كان الأمين العام الدكتور والمربي والفيلسوف إبراهيم مدكور، وقد ظل هذا الرجل هو المجمع اللغوي سواء أكان أمينًا أو رئيسا له بعد رحيل طه حسين، وقد كلفني منذ الأيام المبكرة الأولى بمتابعة موضوع المبنى الجديد للمجمع، ابتداء، من اختيار الموقع في الزمالك – كان المبنى أيامها في شارع مراد بالجيزة – ومرورًا بالشركة التي ستقوم بإنشائه، ونظرًا لعدم وجود جهاز هندسي في المجمع يمكنه إدارة وإصدار القرارات المناسبة، واعتمادًا على صعوبة التعامل مع الإدارة الهندسية بوزارة الثقافة التي كنا نتبعها أيامها، والتي كانت لا تشعر بالولاء نحو إدارة المجمع بطبيعة الظروف، فقد اقترحت أن أسعى عند المقاولون العرب كي تقوم بهدم القصر القديم الذي يشغل الموقع المقترح، بالزمالك، والذي نجحنا في نزع ملكيته من أصحابه الذين كانوا يتقاضون مبلغًا تافهًا قيمة إيجارية له من

وزارة التعليم (المعارف سابقًا) فقد كللت المساعي بالنجاح ووافق عثمان أحمد عثمان – الذي أصبح وزيـرًا للإسـكان والتعمير أيامها – على إصدار قرار تكليف لشركة المقاولون العرب بإزالة المبنى القديم، وإعداد الموقع، وبنـاء المبنـى الجديد، وتأثيثه، لاحظ أن الأمر كان سيختلف لو ترك تحـت سطوة الأجهزة البيروقراطية، أنظر لقاعة الجلسات المجمعية والتي من الأرابيسك الخالص، وعليك أن تـدخل القاعـات الفرعية، وتجهيزاتها بالأثاث المناسب، أنظر إلى الموقع الذي تتناول منه الحاجة فاطمة الملف الخاص بي كـي تستصـدر قرار إعفائي من العمل وإحالتي للتقاعد. انظر إلـى قاعـة الرئيس – الذي هو الآن الدكتور شوقي ضيف – وإلى المقعد الذي يجلس عليه الآن وهو يوقع قرارات الحاجـة فاطمـة، ثلاثة عشر عامًا– من ١٩٧٠ إلـى ١٩٨٣ – وأنـا ألـف وأدور بين إدارات المرافق في مبنـى محافظـة القـاهرة، والمكتب الاستشاري المصمم لتكوينات المبنـى، والإدارات المختلفة في وزارة الإسكان، ثم إدارة حي غـرب القـاهرة وطلباته المتعددة، وشـركات الكهربـاء لتوصـيل مختلـف الخطوط الكهربائية من منخفض إلى متوسط إلى عال، واللف

والدوران كي أحول بين المحافظة وبين إزالة أشجار المانجو في حديقة المجمع – التي تحتل جزءًا منها سيارات المجمع الآن، أنظر إلى الجهود المبذولة في وزارة المالية كي نحصل على اعتمادات الباب الرابع المخصصة للبناء، ولاسيما أن سنوات – كالثقوب – جاءت خلال ذلك بدون أي اعتمادات بالمرة، والجهود الأخرى المؤلمة والمرهقة كي لا تتوقف الشركة المنفذة عن مواصلة العمل في المشروع بسبب خلو الميزانية من اعتمادات، وهذا كله جرى تحت ظل من سيرحمه الله بناء على دعائي: إبراهيم مدكور، الذي لم يرفض لي طلبًا، ولم يضايقني في استنزاف حركتي في محاولة النفاذ داخل الأجهزة البيروقراطية المختلفة، ولاسيما أن هذا الرجل هو صاحب كتابه البديع شديد الذكاء الذي أصدره عام ١٩٤٨ – إصلاح الإدارة الحكومية، والذي – هذا الرجل – بعد انتهاء المبنى بالشكل الذي تم تصميمه به، وبعد تأثيثه وفرشه بالسجاد والموكيت، وبعد تشغيل المصاعد والتكييف، قال للزميلين المديرين السابقين بالمجمع: إبراهيم أحمد ونجيب وهبة: أريد أن أكافئ هذا الرجل – الذي هو أنا، فطلبت منه أن أستقل بحجرة على نهر النيل، والتي أكتب

فيها الآن منذ عام ١٩٨٤ حتى الآن، ومنها حصلت على جائزة الدولة التشجيعية، وفيها كتبت قصصي وراجعت تجاربها، حيث كان الدكتور مدكور قد أصدر أمرًا بألا يرهقني أحد بأية واجبات إدارية منذ ذلك الوقت، ولعله من المناسب الإشارة أن بيروقراطية المجمع الذي أكتب من حجرته الآن – صمموا أن يكون كل الأثاث جديدًا في جميع قاعات وغرف المجمع، عدا غرفة واحدة: غرفتي الجميلة، والتي يتألق فيها دولاب كتبي المحطم منذ أن كان في شارع مراد بالجيزة، والمكتب نفسه الذي ظللت أجلس خلفه منذ أن التحقت بالعمل في المجمع، وهو الجهاز البيروقراطي نفسه، الذي كان عدم اشتراكي على أي مستوى في جهود ومتابعة بناء وتأثيث هذا المبني الجديد سببًا في نجاة المجمع من مكائد الإدارات وشرورها، والتي أدت – فيما بعد إلى وقائع ليس هذا وقت الجنوح إليها دعني أفخر بذلك ولو لم يحس أحد سواي.

وهأنذا أجمع أوراقي، كتبي المترجمة إلى الفرنسية والإنجليزية والهولندية واليابانية، إهداءات الأستاذة الأعضاء الذين صادقوني في المجمع: أحمد مستجير ومحمود مكي

وناصر الأسد وأحمد صدقي الدجاني ثم أصدقائي القليلين جدًا من موظفي المجمع وعماله، لنعود إلى ترتيب الأوراق مــن جديد، وصياغة الأوقات والأماكن – التي جهزتها مبكــرًا – التي سوف أحيا فيها، بعيدًا عن التصعلك في المقاهي حــول أصوات زهر الطاولة وقواشيطها، كي أترك للحاجة فاطمــة أن تبدأ الآن – أو بعد يومين أو أسبوعين في تجهيز الأوراق المناسبة كي أصبح موظفًا سابقًا، مع أني – فعلا – موظــف سابق منذ أكثر من خمسة عشر عامًا، ليصبح المجمع، ومــا في المجمع، ومن في المجمع، جزءًا من ذكريات تضاف إلى أكداس أخرى – لا تزال مشتعلة – من ذكريات.

يا سلام يا ست ... إنها أم كلثوم

●● متعتنا القصوى ظلت تلف وتدور في الكــلام المبكر عن حفلة أم كلثوم، كانت الحفلة – كما هو معروف – تبدأ في الساعة العاشرة من ليلة الخميس، وفي الحقيقة فــإن هذه الليلة (بالتعريف الشرقي العربي الديني المصري) ليلــة الجمعة، أي ليلة الوصال الزوجي، ليلة الهنا، صــباح اليــوم الثاني يكون الجميع – كل الشعب – في راحة، حيــث يبــدأ الشعب في الاستيقاظ خلال حركة ترتيبــات صــلاة ظهــر الجمعة، هذا إذا لم تكن الليلة قد اقترنــت بحفلــة أم كلثــوم الشهرية، يكون بعد العصر وقتًا مناسبًا لبدء حركة الاستيقاظ من جمهور غفير، ويكون قبل ذلك بليلتين – على الأقل – قد بدأ التفاوض والحديث والكلام والتــربيط بــين الجماعــات والشلل كي نكون في استقبال صوت أم كلثوم فــي أحســن حالاتنا: المزاج بالذات ●●

كنت في العاشرة من عمري حينمــا بــدأ لفــظ (أم كلثوم) يتسلل إلى طبقات العقل، ســالمة – مغنيــة قريتنــا الشهيرة – جاءت لتحيي حفل سبوع (أمجد)، أول إنجــاب لخالي العظيم ناظر المدرسة، وقريتنا – ديروط الشــريف –

من أكبر وأضخم قرى مصر، كان تعـدادها عـام ١٩٤٧ – ٣٧ ألفًا، لها عمدتان: واحد مسلم وكان أيامها أحمد عثمـان الذي يقضي الصيف في لبنان، وواحد قبطـي مـن عائلـة (القمص) نجيب القمص أو غيره، وكلا العمدتين حاصل على شهادة عليا، أي لم يكن أحدهما مشابها لهؤلاء العمـد الـذين تشغي بهم أفلام السينما والتليفزيون وروايات الأصدقاء، وهم العمد المتناسلون من أصلاب عبد الرحيم بيه كبير الرحيمية قبلي، هذا النوع من العمد لم نعرفه في قريتنا أبدا، وعنـدما انتشر في كل أركان الإعلام (مع إضافة المسرح) ظللنـا – نحن آل ديروط الشريف – نبحث عن هذا النوع من العمـد في الأرياف الأخرى، سيكون ملحوظًا أن مدرسة خالي – أي المدرسة التي كان خالي ناظرًا بها – أقامت حفلة عام ١٩٤٦ – حضرها مدير التعليم – وأرجو أن تصدق ذلـك – مـدير التعليم بنفسه – ومن بين فقرات الحفلة كـان العمـدة الـذي تعرفونه، أي العمدة الصعيدي الجاهل خفيف الـدم المثيـر للمرح معه وللسخرية به.

كان الجمهور الذي جاء لسماع سالمة في سبوع أمجد كبيرًا وكثيفًا، بالناس امتلأت ساحة البيت، ثم الحارة، حتـى

بدايات الشارع الكبير، وكل العائلات أوفدت ممثليها ومحبي خالي الناظر الذي تزوج وهو يشرف على سن الأربعين، مع أهمية أنه كان الأول الذي وصل إلى هذا المستوى من أهلي وأهل قبلي جميعًا كما أنه كان رمزًا للبلد خلال اصطدامها بالقرى الأخرى، وسالمة – المغنية – كانت تؤدي واجب الغناء بكفاءة معروفة: في أفراح المواليد المتميزين، وختانهم، والخروج من السجن، وعدم ثبوت الأدلة على المتهمين بالثأر، وعند نجاح الانتقام، والتعديد في الجنازات على رأس الراجلين، ووراء النعش، وعند عودة الغائبين، وكانت حنجرتها قد برزت وتدلت في رقبتها كالرسم البياني لتعلن عن نشاط قريتنا، سالمة جاءت تلك الليلة لتغني في هذا الفرح العظيم، والذي كان مدخلي لمعرفة أم كلثوم، غني لي شوي شوي، غني لي وخد عيني وكانت الجماهير تهيص صارخة: أعد، كمان وكمان يا ست، يا صباح الخير يا اللي معانا، على بلد المحبوب وديني، يا مسافر على بحر النيل، كمان يا ست، الله يسترك ويخليك للمجروحين، الكروان غنى وصحانا يا اللي معانا، وراء سالمة كان عازف ربابة

وعازف عود وطبال، المرة الأولى التي أرى فيها العود بعيدًا عن صورة فريد الأطرش في الجرايد.

بعد ذلك بأيام قلائل كنت في بيت عمتي فاطمة، وكان ابنها الشيخ أحمد (المولع بمصاحبة أعيان البلد والمغرم بتقليدهم) قد اشترى جهاز راديو كبير من هذا الذي يستمد كهرباءه من البطاريات السائلة. المستعملة في تغذية موتورات السيارات)، الفخر يدفعنا لإعلان أنه كان الخامس أو السادس في قريتنا الذي اشترى راديو: كان قبله أنور الشريف، وبيت القمص وأنور شناوي ثم ثلاثة أو أربعة أجهزة في بيوت المعارضة، بعدهم ابن عمتي الذي هالني أن الجميع زادوا احترامهم له فور امتلاكه الراديو أضعافًا ثم لم تلبث أن جاءت سالمة – من الراديو – لتغني: ظلموني الناس ظلموني، حينئذ نبهني واحد من ذوي الخبرة: هذه ليست سالمة، إنها أم كلثوم.

وما كادت الراديوهات تنتشر، في تلك الأحقاب من عام ١٩٤٨ – ١٩٥٠ حتى أصبحت أم كلثوم جوًا خاصًا، تهفو القرية أن تتنفسه، وأن تعيشه، وأن تدندن بمقاطعه، وأن تعد العدة لاستقبال خميسها الخاص بأم كلثوم، تمامًا كما

كانت – أعوامها – تعد عدتها لاستقبال ليلة أبـــو هـــارون، وليلة الفرغلي، وليلة السيد البدوي، وليلـــة الخضـــر وليلـــة الشاويش، ومعظم الأولياء أصحاب الليالي لم يكونـــوا مـــن بلدنا، لكن هذا لا يمنع الاحتفال بهم وبلياليهم، وفـــي معظـــم الحالات كان ذلك قد ثبت وترسخ نتيجة لظهور الولي لواحد من ذوي الشأن في المنام، وفي العادة يكون الولي قـــد حـــل معضلة من تلك المعضلات التي واجهها ذو الشـــأن، أو أن الولي قام (بالتعليم)، والتعليم هو أن يترك الولي أثـــرًا فـــي موقع معين يرغب أن يقام له فيه شاهد، شرخ فـــي حـــائط أو حفرة في أرض، أو انقصام بين سقف وجدار، أو الفشـــل في إشعال نار فرن ليصبح أي موقع حدث فيه ذلك مرشـــحًا لإقامة الشاهد لهذا الولي، والذي يتضمن قبة جيـــدة وتحتهـــا شاخص مغطى بقماش أخضر فوق مقبرة وهمية، فإذا اتســـع الأمر وتضخم ذو الشأن – الذي وعد – أو ذو شأن آخر من العائلة أو المحبين، فيمكن إقامة مصلية – أي مساحة للصلاة ملحقة بالمقبرة الوهمية، أو الإشارية، ومن المهـــم أن أشـــير إلى أن أي موقع يقوم فيه الولي بالتعليم – أي يترك الأثر – فسوف يقام فيه القبر الإشاري مهما كان الموقع، ولا يـــزال

قبر الشيخ علي (علي من؟؟ لا أعرف) مقامًا في درب ضيق طويل ينبعج عند المقام ليصبح قابلا للعبور فيه، هذا الدرب المخنوق الضيق الطويل المنبعج يستعمل أصلا في وصول ناس قبلي البلد إلى منطقة الطاحون.

كما كانت بلدنا تمهد لاستقبال ليالي الأولياء الصالحين، كانت تستعد لاستقبال ليلة أم كلثوم...

خميس أم كلثوم يبدأ يوم الاثنين السابق، ويوم الاثنين هو يوم السوق، وهو يوم الذبح وشراء اللحوم لمن يستطيع، ولم نكن نعرف الثلاجات، في الشتاء كان يمكن للحوم يوم الاثنين أن تصل سليمة إلى ليلة أم كلثوم، تعالج بالتسخين كل يوم مرة، أما في الدميرة أو القيظ، أو أيام الحرارة الصيفية، فيصعب ذلك، لكن هذا لم يكن له شأن كبير، فالذين تعودوا على الاحتفاء بالاستقبال ليلة أم كلثوم كانوا نوعين لا ثالث لهما: الأثرياء، وهم في حالة طقوس السهر الدائم، إن لم يكن لأم كلثوم فلأن ذلك هو النسق الذي تقوم عليه حياتهم: الكوتشينة (الميسر) والطاولة واستضافة الراقصات، والكلام عن المسائل الوطنية المتشاعبة وهم خلال ذلك يأكلون المحمر والمشمر والمخمر والملتوت بالبهارات،

لا يصعب على أي غني في بلدنا أن يذبح الجديان والكباش كقانون أصيل لاستمتاع ضيوفه، أما النوع الثاني – المتوسط – أي الذي لا يملك قدرات النوع الأول، فيبدأ مبكرًا – ابتداء من يوم السوق – في ترتيب أمور أم كلثوم، إن لم تكن اللحوم فهي الدواجن والحمام، التي لا تحتاج إلى ما يحتاجه اللحم المذبوح، من رعاية، كثير من البيوت التي كانت تحتفي بليلة أم كلثوم كانت تبيع دواجنها وحمامها إلى ضيوفها بدعوى شرائها من خارج البيت.

كل ليالي القرية يبدأ التمهيد لها من يوم الاثنين السوق، لكنها – بعد ذلك تختلف، فابتداء من يوم الثلاثاء يبدأ القائم بشأن السهرة في التجهيزات الأساسية، والسرية أيضًا، الحشيش له أهمية قصوى على كل عناصر اللذات والمسرات، هناك تاجر حشيش يقيم بصفة دائمة بجوار دكان عبد الواسع، هو أعور العين ونظيف الملبس ويعتمد أساسًا – في نشاطه – أي في توزيع المطلوب على جلسات الأعيان، ولذا فهو لا يميل – ولا يحب – التعامل مع غيرهم، فهو يترك المسائل لواحد آخر من بيت الفخراني ليتعامل مع الأقل في الدرجة الاجتماعية، (حاولت أن أتذكر اسم هذا التاجر

الكبير الأعور دون جدوى) كان يقول إن أولاد غير الذوات يفاصلون ويساومون في سعر الصنف، وهو لا يطيق ذلك، وكان المعهود أن حجز كميات الحشيش تبدأ مبكرًا، في العادة فإن التاجر كان يحتفظ لعملائه بأنصبتهم، غير أن حالات سفر بعض أصحاب السهرات، وما يترتب على ذلك من ارتباط كمية الحشيش بوجودهم في البلد، أدى إلى بيع الصنف بعد حفلة أم كلثوم بسعر أرخص كثيرا من قبلها، ولذا فإن الحجز أصبح ملزمًا للطرفين والصنف لا يخضع للعب أو السفر أو الهزار، ولاسيما إذا كان المطروح من الصنف يحمل اسم: مساء الهنا أو غني لي شوي شوي فيكون حجز الصنف مساء يوم الثلاثاء عادة، وبناء على هذا الترتيب تكون قد تحددت قيمة الاستعداد المادي لكل فرد، إذ أن المبلغ المجموع من الجماعة الساهرة سوف يحدد الخطوة التالية (عند أمين أبو علة)، وهو المختص بالمشروبات – لا مؤاخذة – الروحية، الأثرياء كانوا يرسلون رجالهم بالسيارات (في العادة: سائقي سياراتهم) لإحضار الويسكي الفاخر (أبو قطة سوداء – أو – أبو كارت أسود أو كارت أحمر: أي المرسوم عليه جوكر الكوتشينة – أو أبو شريط

ذهبي – " أي شيفيز ريجال " – أو أبو جرس – لعله الجـــن الإنجليزي المرسومة على زجاجته ساعة بيج بن ...)، كانوا يستجلبون هذا الويسكي الفاخر من ملوي أو المنيا أو أسيوط، وكثيرًا ما كان يرافق القوم في ســـهراتهم ضـــباط الســـلطة أيامها، الذين يهيمنون على مقدرات كل الأمور، أمـــا أمـــين أبو علة – لأن بجسده نتوءا ظهريا كالـــذي كـــان لأحـــدب نوتردام – فقد كان محله الشهير يبيع البراندي أبو أربع نجوم أو ثلاثة أو خمسة، والروم، والنبيت الأبيض والأحمـــر، ثـــم أهم من كل هذه المشروبات – لا مؤاخذة – الروحية كـــان الزبيب الصعيدي، سواء المصنوع في بيوت معينة يعـــرف طريقها أمين أبو علة أو واحد من صبيانه، أو النـــوع الـــذي تنتجه شركات الخمور في الإسكندرية أو الظاهر أو بـــولاق أبو العلا أو الفيوم، ونادرًا ما كان القـــوم يهتمـــون – ليلـــة أم كلثـــوم – بـــالبيرة أم نجمـــة، هـــي مشـــروب الفقـــراء والمراهقين...

كانت الكوميونات – أو البؤر – أو التنظيمات تصل إلى أوجها بعد عشاء الخميس، وسوف تفاجأ بأن مراكز هذه الوحدات الساهرة سوف تحظى برش الماء أمام أبوابها، كما

أن المشرف على السهرة- وهو عادة ليس صاحب البيت- يكون قد اطمأن على حالة الراديو، والبطارية، وكمية الترمس والحمص (حمص الشام وليس الحمص الأصفر)، والجبن القديم، وأكواب المشروب (لم نكن نعرف مكعبات الثلج أيامها)، ثم الجوزة، وأبكاو المعسل، والفحم، والمنقد الذي سوف تعد فيه جمرات النار، وأطباق تقديم الطعام، والكوتشينة (كانت ٣١ أشهر لعبات القمار عند الجماعة التي أعرفها)، ومن المهم أيضًا أن يكون مع المشرف مبالغ نقدية مفكوكة إلى قروش صغيرة لزوم المضاربة في ٣١، كما أن الأمر لا يخلو من سبت فاكهة: برتقال ويوسفي وبلح، وتكون الجرائد – لمن يستطيع الحصول على جرائد – قد نشرت عناوين ما قد تشدو به ست الكل أم كلثوم من أغان، وفي بعض الأحيان كانت أم كلثوم تفاجئ الجميع بغناء ما لا يكون في الحسبان ...

بعد العاشرة – وأحيانًا حتى الساعة الحادية عشرة – تبدأ أصوات انفتاح العقول على قاعة الغناء، التي ينساب منها صوت المذيع – حسني الحديدي أول من عرفت – هامسًا واعدًا بأرق الألحان وأعذبها، متساميًا مع السامعين

المنتشرين في خلايا لذائذ مصر كلها – ليصل بهم إلى أوكار السماء فوق الغيوم، حيث تبدأ الأكف في التصفيق عند دخول أفراد الفرقة الموسيقية، محمد عبده صـــالح علـــى القـــانون وأحمد الحفناوي على الكمان والقصبجي على العود، وتبـــدأ الدندنة المتسربلة من ضبط الآلات تصل إلى جوانحنا لتفـــتح الباب، بعدها ينهمر التصفيق فـــور وصـــول الســـت إلـــى المسرح، فتتجمع الدندنات لتعلو قليلا ثم تنخفض حتى تـــذبل ليصبح للصمت سطوة متألقة في بدايات الضباب الأول مـــن سحب التعميرة المكركرة، ولا يستمر هذا الصمت المتوغـــل في الكيان طويلا، فالموسيقى تبدأ، ليعود التصـــفيق تاركًـــا الجماهير تزغرد وتنفعل، وتصرخ، وتنتج الآثار الصـــوتية التي تمتزج بالاستحسان الملعون. (وهي ظاهرة لم يقتـــرب من تحليلها أحد، حيث تعودنا أن نمـــدح المتميـــز، الـــذي، لا مثيل له بأنه ابن كلـــب أو ابـــن حـــرام)، ويصـــل هـــذا الاستحسان اللاعن للمغنية العظيمة، أو لقائد فرقتها، أو للذي لحن لها هذه الوصلة – إلى قمته، بعدها تنساب الأرواح فـــي انفعالها السعيد، دون اهتمام بما قد يحدث خلال كـــل ذلـــك، يا ممدوح أفندي، أو يا عبد المنعم أفندي، فيه بنت عاوزاك،

ويتخلص الشخص المطلوب من الهيام والامتــزاج لينســلخ خارجًا فيجد ابنه أو بنته موفدات من بيته ليأخذوا من أبــيهم نقودًا لحاجتهم إليها، بل الأهم من ذلك أن تفاجأ ببعض أفراد الوكر المنتشي يقوم فجأة – وفي غضب – ليرى الذي يطلبه بالخارج، ليكون واحدًا ممن لهم عنده نقود: من باب الســلف مثلا أو الجزار أو أحد الجيران، فيأتي إليه في خلية أم كلثوم اقتضاء لحقه، وعلى هذه الوتيرة تحــدث مثيــرات البكــاء أو الغضب، مرضى يصرخون ألمًا فلا يسأل عنهم أحد، عيل تقرصه عقربة فيحاولون تأخير نقله إلى المستشــفى حتــى تنتهي أم كلثوم من الوصلة الأولى.

ويظل الأفراد يتقافزون في سعادة صارخة وأصواتهم أحيانًا تشارك أم كلثوم غناءها، هذا دون أن نقترب بالوصف لحالات العشاق الذين يضنيهم العشق، فيظلون صامتين مــع قليل من هز الدماغ، أو غارقين في الإنصات مع المبالغة في سحب أنفاس الحشيش العميق: ســجائر أو جــوزة والتــأوه بإصدار الآهات الحارة التي تلهب المكــان شــجنًا، وبــين الوصلات يكون مناسبًا أن يكثر الالتهام، أو تقديم فص أفيون تحت اللسان، مع التنبيه بعدم استحلاب الأفيون مــع شــرب

الخمور – لكــن ذوي التجــارب يســتطيعون أن يلتهمــوا ويستحلبوا ويشربوا ما لا طاقة للغلابة به – أي الخاوون من التجارب العميقة، حيث يصل الجميع إلى الوصلة الثالثــة – أي الأخيرة بعد كفاح مثابر بين هــالات المتعــة المنتشــية، إذ تكون الوصلة الأخيرة – في حالات كثيرة – تتناثر شرائح من موسيقى وآهات وأغنيــات، لأفــراد لا يســتطيعون أن ينصبوا حيلهم.

كثيرون – قبل أذان الفجر مباشرة – كانوا يسقطون هامدين علــى الأرض وراء الأبــواب، أبــواب الســهرة، أو أبواب زوجاتهم، دون التوقف عن إصــدار الشــفرة ذات المعني الجميل: يا سلام يا ست ... يا سلام يا ست حتى بعد ظهور الشمس في سماء الصباح بساعات طويلة.

الرحلة ... النعمانية

●● تركت خلفي وجع الدماغ، والضجيج، ومؤتمر الرواية واحتفالية أدباء العالم العربي لتدشين أول روائي عربي يفوز باقتطاف أول جائزة مصرية ذات شأن مالي، بعد أن تضاءلت قيمة جوائز دولتنا بسبب التضخم الفظيع الذي يحيطها الآن: التشجيعية – مثلا – لا تزال حتى كتابة هذه السطور، ألف جنيه (يعني ثمن نشر قصة قصيرة)، ويقال إنه تم تعديلها، وأنها قد تضاعفت مرات، غير أن قيمة جائزة الرواية العربية التي نحتفل بها الآن في القاهرة (خمسون ألف جنيه) تدخل في الأرقام ذات الشأن – في المنطقة العربية، والتي وصلت الجوائز فيها إلى نصف مليون جنيه، كل الأدباء المساهمين في إنجاز الرواية المعاصرة يصلون الآن صلاة الرواية، وقد صنع ذلك ضجيجًا مرهقًا وثرثرة غير مسئولة ومجانية كل واحد يعطيك انطباعًا بأنه يعرف الفائز، حتى إن إحدى الجرائد نشرت الأسماء المتوقعة، على أساس أنها الأسماء الفائزة فعلا.

تركت خلفي – كل وجع الدماغ هذا – واتجهت إلـــى الصعيد، آخر فبراير يحيطك بالجو الدافئ الجميل الذي بسببه يصبح الصعيد مناسبًا للمرح والسهر واستحلاب الـــذكريات، كنت في طريقي لتلبية دعوة مدير ثقافـــة أســـيوط الصـــديق محمد عبد المنعم، والذي أعرفه منذ سنوات طويلـــة، حيـــث نتوجه معًا – فور لقائنا في أسيوط – إلى مدينة أبو تيج، كي نشهد تجارب النص المسرحي الذي كتبه بهيج إسماعيل عن روايتي – (من التاريخ السري لنعمان عبد الحافظ)، ولم أكن أعرف أن بهيج فعل ذلك، إنه كاتب مسرحي دءوب، عرفت اسمه أول مرة خلال مؤتمر الزقازيق الشهير عـــام ١٩٦٩، والذي فازت فيه مسرحيته (حلم يوسف) بالجـــائزة العليـــا، ولم يسمح لي إبراهيم شهاب مدير شركة المقاولون العـــرب بالسفر من أسوان كي أشارك في هذا المـــؤتمر بـــدعوى أن (هذا كلام فارغ)، برغم اتصال الدكتور حكمـــت أبـــو زيـــد بمحافظ أسوان أيامها، لكنه صمم (يا تـــرى أيـــن إبـــراهيم شهاب الآن؟)، المهم أن هذا المؤتمر المبكر كان وراء كـــل مؤتمرات أدباء مصر – في الأقاليم وغير الأقـــاليم – بعـــد ذلك، ومنه تحركت أسماء كثيرة، منها بهيج إسماعيل، الـــذي

أراه مصادفة كلما توجهنا إلى إتيليه القاهرة) نتبادل التحيـــة والسلامات مع أهمية اللقاء، لكني لم ألتق بهــذا المســرحي المتميز في جلسة حتى الآن، لم أكــن أعــرف أنـــه فعلهــا واصطاد بطلي (نعمان عبد الحافظ) من النص الروائي إلـــى التشكيل المسرحي، وهو أمر يسعدني بالطبع، حتى لـــو أدى ذلك إلى أن أتركه له أسيرًا مسرحيًا بـــدون المطالبـــة بـــأي حقوق الأسر، مع عدم الإصرار على إطلاق سراحه، يكفيني أن يصبح – هذا البطل الأثير – وليست الأسير – موضـــع اهتمام فنان مسرحي مثل بهيج إسماعيل، تمامـــا كمـــا نـــال حظوته في الترجمة إلى عدة لغـــات: الهولنديـــة والفرنســية واليابانية، بالإضافة إلى دراسات – حول هذا الوغد: نعمـــان – في أكثر من موقع أكاديمي.

كل هذا دار في ذهني وأنا أصحب – في أســيوط – الشاعر سعد عبد الرحمن، والفنان التشكيلي الـــذي عرفـــت فرشاته الساحرة موضعها المأمول في معارض العالم: ســعد زغلول، الغارق الآن في إعادة المجـــد للـــدانتيلا المصـــرية الشهيرة، حيث وصلنا أبو تيج في التاســـعة لـــيلا، والجـــو

لا يزال متأثرًا بحرارة النهار، نعم: فقد كان الليل دافئًا، مثل بقية القلوب المتشاركة في الآمال الكبرى للرواية في القاهرة.

خلال تلك الرحلة كان مؤتمر الرواية قد أنهى احتفاليته بفوز عبد الرحمن منيف بالجائزة، وهو اختيار موفق بكل المقاييس، ولابد من الإقرار بأن وراء هذا الجهد – وما فيه من تغيرات وتطورات – المثابر جابر عصفور، بما فيه من عناد، وما لديه من تصميم، صحيح أن السينما المصرية، والمسرح المصري، سبق لهما أن قطعا مرحلة رائعة في ذات طريق الجائزة المصرية الشاملة لكل الجهد العربي ثم العالمي ووراء ذلك – كما معروف سعد الدين وهبه، هذا الراحل الذي من الصعب تعويضه، غير أن الإبداع الروائي – والقصصي – والشعري – ظل مجرد احتفالية مصرية دون الخروج عن إطارنا المحلي، وبدعوى عصر الرواية نالت الرواية العربية القسط الأول من هذا التطور العظيم هذا العام، وواضح انحياز جابر عصفور للفن الروائي؛ ذلك أنه – ومن سنوات مصمم على أننا نعيش عصر الرواية وبعد أن تحقق للرواية العربية أقصى ما يتمنى لها مصريًا، علينا أن نتباحث مع جابر عصفور كي نبدأ

اللعبة الجديدة: هذا عصر القصة القصيرة ونحشد الجهود في سبيل ذلك، ليس فقط لصالح القصة القصيرة، بل لصالحي أنا بالذات، وسوف نجند أنفسنا – في الحقبة التي تلـي تحقيـق المراد للقصة القصيرة – بإعلان الفترة التي تليهـا عصـرًا للشعر ... قل إن شاء الله.

وإلا: هل سنترك الأمر للروايـة فقـط يـا دكتـور جابر؟!!

كان واضحا – ومن الوهلة الأولـى – أن صـياغة روايتي إلى نص مسرحي – قام علـى الهيكـل الأساسـي، وقد احتلت الطقوس الأهمية العليا، وقد قـال لـي المخـرج حمدي طلبة إنه عايش بهـيج إسـماعيل خـلال الصـياغة المسرحية، أو التأليف من جديد لحساب المسرح، وقد سـبق لهذا النص أن عولج مسـرحيًا مـرات، قـام بـذلك طلبـة البكالوريوس في معهد الفنون المسرحية، وكـل المعالجـات ظلت مشغولة بما لم يطف في ذهني، معالجة – كمثال – كان مخرجها – إبراهيم الفو (الذي يعمل الآن مع عادل إمام فـي الزعيم) ومعه محمود البزاوي – جعلت من أمريكا طرفًا في الصياغة المسرحية، كما أن عرضًا آخر انشغل بقضية السيد

والد نعمان الذي باع الجمل وجرى وراء واحدة من الغوازي عائقًا، ليصبح من جوقتها، وهي مسألة ثانوية جاءت في سطور قلائل من الرواية.

ولذا فلم أندهش حينما وجدت نصا مسرحيًا – في أبو تيج – مشغولا بالطقوس، طقوس الميلاد، وطقوس الموت (الدفن) وطقوس الختان، وطقوس التلاقي الجنسي في الزواج وكانت الموسيقى تحوي قدرًا مذهلا من الإيقاعات الريفية (ومؤلفها مدحت نظير)، مما جعل الرحلة النعمانية احتفالية جماعية بهذا البطل الغلبان الذي وصفه الدكتور عبد الحميد إبراهيم – في مقال عن الرواية – بالبطل الوغد ...!! وكنت سعيدًا سعادة قصوى وتيار من الانتشاء يغرق حواسي، وكأنها المرة الأولى التي أتحقق فيها، حيث عدت أرتدي الطاقية المقصبة بخيوط ذهبية، والجلباب الأبيض الجديد في طريقي لعملية الختان، فأنا واحد من أبناء الريف الذين ختنوا بعد أن أصبحت صبيًا (كنت في التاسعة من عمري)، ولعلها التقاليد أيامها التي كانت تقتضي الوفاء بالنذور لصالح أولياء الله، لم يكن نعمان هو الذي يجري على مسرح أبو تيج، كنت أنا حتى ولو كانت الطقوس القائمة ليست هي بالتحديد

طقوسنا أيامها، وعندما قام الحلاق بالمحاولات الأولى لختان نعمان، تمنيت لو أن ضجيج الطقوس انخفض حتى نحس بحركة الموسى وهي تقترب تمهيدًا لاقتطاع القلفة الأولى من نعمان، وكانت المناقشة – فور انتهاء العرض – جادة وواعية شارك فيها الضيوف والقائمون على العمل، وحاولت أن أتنصل من مناقشة النص المسرحي – على أساس أنني – بتكويني – متعصب للنص الأدبي – بصفتي صاحبه، وأنا مثل أم نعمان: لا ترى في ولدها سوى الصحيح السليم – مع أن الولد – يا عيني: غلبان، ولذلك أعلنت سعادتي القصوى لهذا العرض مع التنبيه باستيلاء الطقوس على كل ما كنت أود أن يكون تمثيلا فقط.

وخصوصًا أن الذي قام بدور نعمان – واسمه عماد حمدي ... كان نموذجًا ذا تكوينات جسدية وقدرات حركية قادرة عني الاستقطاب، وسط كل التجمعات أو تداخل واحتكاك الشخصيات يظل عماد حمدي المركز الأساسي المهيمن على الرؤية، وهو أمر يمكن أن يكون ذا فائدة في مسارح الأقاليم التي عادة ما تختفي منها الشخصية التمثيلية

المؤثرة، كما أن ممثلا آخر يشبه الطفل – كان قويًا وناضجًا، وقادرًا على إثارة الدهشة، والمرح أيضًا.

وقد قام ممثل هو المسيو عيسى عمر (ولا أعرف إن كانت كلمة المسيو مقصود بها اللقب الفرنسي أم لا) بأداء دوري، دوري أنا المؤلف، حيث كان يقوم بالتعليق على الأحداث أو الاعتراض عليها، وقد قال المخرج – حمدي طلبة – بأن شخصية المؤلف (الذي هو أنا) تم توليدها مسرحيًا من خلال حركة هوامش النص الأدبي، ومع سعادتي القصوى بهذا (الاستنساخ) فإني أرى أن شخصية المؤلف الأدبي المعلق على النص المسرحي تحتاج إلى إعادة توزيع حتى يصبح ضابطًا للعرض، وصانعًا لإيقاعه وتوازناته، إذ أن هذه الشخصية توجد بتركيز وكثافة في بعض المواقف – وهي قليلة، ثم تختفي عدة مشاهد ولوقت طويل حتى تظهر مرة أخرى.

كانت ليلة الرحلة النعمانية في أبو تيج طاغية بالمتعة، وكنا جميعًا في حالة صفاء لم يعكره حتى أطنان الفول السوداني التي أحضرها لنا ابن أبو تيج الشاعر شوقي أبو ناجي، والذي حاذرت أن يحل تقشير السوداني، وصوت

تحطيم وحداته في الأفواه، محل المناقشات الجـــادة، والتـــي تبادلنا فيها – جميعا – كثيرا من الآراء المتفاعلـــة، والتـــي – بالتأكيد – كنا نحتاج إليها، مع إتاحة الفرصة، للشاعر سعد الدين عبد الرحمن ليأخذ أطنان الســـوداني هديـــة خالصـــة منزوعة الحقد، حيث ظل نعمان عبد الحافظ خالي – ابن عم أمي – الغلبان، والذي مات منذ سنوات قليلة، دون أن يدرك أنه أصبح مترجمًا إلى عدة لغات، ثم أصبح بطلا مســـرحيًا ينام بين أحضان جميلات المدن، آه بالمناسبة كانت أم نعمان والسيدة الجليلة فوقية – ترياقان دفئًا أنثويًا ذا جمال لم يحـــظ بهما الثلاثة من قبل: نعمان، والمؤلف، وصـــاحب الرؤيـــة المسرحية أيضًا.

باب في الحيوان الروائي

●● عاد الحيوان الروائي يضغط على قلمي، إذ لا تزال نواتج الأدب العربي الحديث تكاد تكون خاوية من حيوانها الخاص، أي أن هذا النتاج الروائي الضخم لا يتضمن نسبة معقولة من الحيوانات المؤثرة في النص، وسيكون مفزعًا أن تدرك أن سواحل بلادنا على البحرين الأحمر والأبيض لم تستطع أن تزج بما يعتمل فيها من أسماك مختلفة الأنواع والأحجام إلا بمشهد واحد في رواية (فساد الأمكنة) لصبري موسى، حينما افترش عبده كريشاب عروس البحر (نوع من السمك الأسطوري والواقعي أيضًا) ليمارس معها الجنس تسلية – وإيهاجا – للملك فاروق وحاشيته في جنوب شرق الصحراء الشرقية، ومن باب التنبيه فإن الأسماك التي تلمع في بعض الإنتاج الأدبي في الإسكندرية وبورسعيد والسويس – وأية مدن ساحلية أخرى – لا تقوم بدور مؤثر كما هي الحال في الحوت – موبي ديك) عند هرمان ملفيل أو سمكة الماكريل الضخمة عند هيمنجواي في العجوز والبحر، أي أنني لا أقصد أن يدخل الحيوان عالم الرواية لمجرد أنه عبر البحر أو البر إلى

الموائد ثم الأفواه، وبذلك ستظل كـــل العجـــول والخـــراف والجديان والأرانب التي ذبحت في وادي النيل – نذورًا كانت أو احتفالا – تحصيل حاصل لا يعني أنها تحملت نصا روائيًا أي لابد لهذه المخلوقات أن تمارس دورًا فاعلا فـــي عقـــل الرواية وأرضها، ومن الضروري هنا أن نشير إلى أن نسبة عالية من تراثنا متشابكة مع الحيوان أكثر – بمراحل – مـــن تشابك الإنتاج العصري، حوت يونس، وناقة البسوس (التي أشعلت تلك الحرب القبلية الدامية لمدة أربعين عاما وكان من ضحاياها – وأبطالها – كليب وجليلـــة وجســـاس) وهدهـــد سليمان عليه السلام، وبقرة موسى عليه الســـلام، وثعابينـــه أيضًا، وخروف إسماعيل عليه السلام، وكلب أهل الكهـــف، وذئب يوسف عليه السلام، وناقة صالح عليه السلام، ثم هناك رخ السندباد البحري، والغزالة التي أرضعت حي بن يقظان لابن طفيل، وفيل أبرهة وجواد ابن سراقة الـــذي غاصـــت قوادمه في الرمال ليحول بين راكبه وبـــين الإبـــلاغ عـــن الطريق الذي سلكه سيدنا محمد صلى الله عليه وســـلم وأبـــو بكر الصديق في الهجرة، ثم حصان حاتم الطائي الذي كـــان أثيرا لديه لكنه ضحى به كرما ليحتفي ببعض العابرين، فبكى

الحصان سعادة، (التعليق من عندي) ويجب ألا ننسى الأتان (أنثى الحمار) التي أمتطتها السيدة العذراء، وقد احتضنت طفلها السيد المسيح عليه السلام هروبًا من جحيم اليهود، في رحلة مرهقة – يصحبها يوسف النجار – حتى جبل العذراء المطل على مدينة أسيوط، ثم هناك أيضًا الغزالة التي بكت حينما أحست بأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه يعانيان من العطش، وغير ذلك من صنوف الحيوان التي انتشرت في شرايين النصوص الدينية أو التراث الشعبي.

والأدب العالمي في القرون الحديثة يشغي بحيوانات ذات تأثير متفاعل في النص الروائي، بنسبة واضحة، ومن معلوماتي المحدودة، ومع عدم استبعاد الحوت – موابي ديك – لملفيل وسمكة العجوز والبحر لهيمنجواي، سنكتشف أن الثعلب لم يظهر داخل أدبنا في حين أنه كان ذا حضور واضح في رواية للإنجليزي الشهير لورنس (نعم هو نفسه لورنس الذي اشتهر بتصويره للعلاقات والمشاعر الجامحة – والمحرجة بالنسبة لنا)، كما أن البلاد العربية لم تستطع أن تزف ذئبًا إلى ضفاف الإبداع حيث لم يظهر الذئب العربي في أي عمل قصصي إلى الآن حتى ولو كان رمزا في "ذئب

البراري" لهيرمان هسه الألماني ثم هناك مهر أحمر (حصان صغير) يصيبه مرض غامض فيؤثر في معنويــات أســرة أمريكية تحتل موقعها – مع المهر الأحمر – في عمل مــن أجمل أعمال شتاينبك. وقد أدى الدب مهمة ساخنة وشاقة في عملين لوليم فولكنر قصة قصيرة ثم عاد فصاغها المؤلف في رواية متوسطة الطول، أما الشاعر والروائي أدجار آلان بو فقد استهلك في قصائده، وقصصه عددا لا يستهان بــه مــن العناكب والخفافيش والغربــان والقطــط الســوداء وطيــور النورس (ومعها أنواع أخــرى) كانــت تفتــرش نصــوص الأمريكي فيتزجرالد، وأرى أن يكون مفيدًا أن نشــير إلــى حصان تشيكوف، أو هذا الذئب الــذي بــدأ يعــوي حينمــا انكسرت ساق الصائد الأمريكي في أفريقيــا، حيــث بــدأت رائحة التعفن (الغرغرينــا) تعطــي رأيــا واضــحًا فــي المغامرين الأوربيين عند هيمنجواي في ثلــوج كليمنجــارو، ولعل مشهد اليزابيث تايلور، فاتنة الشاشــة الأمريكيــة فــي الحقبة الماضية – كانت تشوينا باشتهائها الفائر فــي الفــيلم المأخوذ عن مسرحية تنس ويليامز: قطة فوق صفيح ساخن، ولا أود الدخول في عالم السينما الغربي الذي يظــل – فــي

ركن من أركان تقدمه الإبداعي – اهتمامه بما هـو فاعـل يتفاعل في حركة الإنسان، لقد كان الفيلم السينمائي (الطيور) لهيتشكوك قصة قصيرة في الأصل وهو من أجمل الأفـلام عمومًا، وحتى لا ننسى فسوف نشير إلى الحمار والحصـان عند سرفانتس حينما استخدمهما في علاقـة موازيـة لـدون كيشوت وتابعه سانكوبانزا (أرجو أن أكون قد سجلت الاسـم صحيحا لأنه من الذاكرة)، ثم كان حمار رامـون خمينيـث (الذي أرجعوا إليه حمار الحكيم – فيما بعد) ولابد أن ثيرانًـا وبقرًا وجديانًا وماعزًا ونسورًا وصـقورًا وكلابًـا ونعاجًـا وثعابين وسباعًا ونمورًا وعصافير وهداهد وسمانًا وفئرانًـا وتماسيح وأرانب، ومئات المخلوقـات الأرضـية والجويـة والمائية قد قامت بأدوارها الفاعلة في شتى أنحاء العالم، لكن معلوماتنا المسكينة الغلبانة لا تستطيع إدراكها ...

لكن ذلك لا يعني أن النص الروائي العربي خلا من حيواناته وطيوره وأسماكه، مرة أخرى: إن ذلك يمثل نسبة ضئيلة بالنسبة لحجم هذا الإنتاج، ويرجع ذلك – في أول أسبابه – أن أهم غالبية – بل كل – المبدعين يقيمون في المدن، وهي مجتمعات تيسر لنا وسائل الحركة والمتعة دون التورط في بيئات أخرى تفرض علينا الاحتكاك والتعامل مع عناصر حيوية حيوانية، كما أن الرغبة في مغادرة المدينة إلى موقع آخر – شاطئ البحر مثلا – تنقل معها تيسيرات وتشكيلات الراحة المدنية، فهل تعتقد أن الحوت سوف يواجه نجيب محفوظ على شاطئ الإسكندرية؟ أو أن جملا هائجًا سوف يداهم بيت جمال الغيطاني ويدمر بكواهله حجرة المائدة أو المكتبة؟ أو أن يوسف القعيد سوف يدخل الحمام قبل الفجر فيفاجأ بقرد يعبث في رافعة السيفون؟ أو مجيد طوبيًا يمد ذراعه كي يطفئ الأباجورة فيكتشف أن زرافة تلحس في صف الكتب، أو سعيد الكفراوي حين يبحث عن جريدة اليوم يجدها مفروشة تحت ثعبان كوبرا وقد أغفى في النوم؟ أو هالة البدري تشير إلى سيارة تاكسي لتذهب إلى عملها وفور جلوسها تستطيع أن تكتشف أن السائق جاموسة

تخور بصوت مشابه لأصــوات آلات تنبيــه هــذه الأيــام؟ أو سلوى بكر حين تقفز خارجة من باب الإيتيليه ينبهها أحدنا أن تقف ساكنة ولا تتحرك بحثا عن حل لاصطياد العقــرب التي تسعى على كم فستانها؟ أو أبو المعاطي أبو النجا فــور أن يسترخي وراء مكتبه، يمد أصــابعه للجــرس اســتدعاء لفنجان قهوة، فينفتح حنك مروع ذو أنياب لسبع جميل يقعــى تحت زر الجرس مباشرة، أو سليمان فياض حين نزوله من فوق سرير الصباح بعد الظهر: يتحرج بين صخور انهيــار جليدي مفاجئ يلقي به في أعماق الوديان، وحين يفتح عيونه يكون غراب قابيل قريبًا منه ينحبــه حظــه فــي ســخرية؟ أو إبراهيم عبد المجيد الذي يضطر أن يلجأ لاستخدام ذئبــه المفضل حتى يصل إلى عمله في الوقت المناسب، أو ســهام بيومي التي تحتفظ ببقايا رحلات صيدها في حديقتها المفعمة بالأفيال والنمور، أو بهاء طاهر الذي يدفعه الطبيب المعــالج دفعا كي يمتطي ثورًا هائجًا يخترق به عالم التأمل والسكون والمرح المهذب؟ أو إدريس علي وهو في حاجة قصــوى أن يخلع ذراعه من بين فكي تمساح دون أن ينام على شــواطئ نيل النوبة؟ مع أن هذا التمســاح بالــذات يحمــل ودا أليفًــا

وطاغيًا بهذا الكاتب بالذات؟ أو فاروق خورشيد الذي يجب أن يؤسر لمدة يومين في غياهب سرداب من تلك التي تمتلئ بها الأساطير الشعبية – الغارق وجدانيًا فيها؟ وسيكون مناسبا لخيري شلبي – المتوحد مع زوايا مقابر المدن – أن تتغلق عليه – أيضًا – جبانة قديمة ذات عمق ينشع بالماء المتحللة فيه جثث البشر المتراقصة مع موسيقى حركة الثعابين والسحالي – وبالذات السحالي المخططة لأن في جوفها مفتاح الجنة لكن ذاك لا يمنعنا من الإشارة ذات الضرورة والأهمية أيضًا إلى المخلوقات القليلة التي اخترقت نصوصنا الأدبية، والتي لا تمثل نسبة مؤثرة إزاء الحجم الكلي الضخم لإنتاجنا: بقرة مسعود في (الأرض) عند عبد الرحمن الشرقاوي، وفي موقف واحد سريع، نعجة لامرأة غجرية وكلب وقطة (عنتر وجولييت) عند يحيى حقي، كروان شديد الموسيقية المهذبة يصدر دعاءه الجميل عند طه حسين. وديك أحمر عند فاروق منيب – وهو بالطبع يؤدي دوره بصفته ديكا لا يستطيع أن يكون أسطوريًا مثل (زهر الفول) الذي أنشأته بمعرفتي فتأثر به بعض عمال الأدب واستدرجوه إلى عقولهم الضيقة وسطورهم الكئيبة بزعم أنه خاصتهم، وأن الأدب مليء

بالديوك. مع أني أعرف أنهم احتازوه على أساس أنه حمامة أو عنكبوت أو تمساح، لا فرق في ثقافتهم المثيرة للغثيان، ثم لابد أن نذكر بالخير مذكرات دجاجة للفلسطيني إسحق موسى الحسيني، والحمار الذي أثلج سطورنا أحقابًا طويلة، عند توفيق الحكيم، وعند صبري موسى نجد – غير ما ذكرناه عن عروسة البحر الخاصة بعبده كريشاب في فساد الأمكنة: حمار يأتي بحمولته من الخضار فوق سيارة كارو تسعى للعاصمة في الفجر، ينام صاحبها تاركا أمر الطريق للحمار، حينئذ – ومن باب التسلية – يقوم شاب مستهتر بإعادة الحمار – وخلفه الكارو – للخف، فيسحب الحمار – كل الحمولة ليعود من جديد إلى حقول الدلتا، ولم أجد أن صبري موسى ينتقد القيادة النائمة، وربما صبري موسى نفسه لم يكن يعرف ذلك، حمار آخر عند رفقي بدوي استرقته كاتبة واستخدمته في إثبات أنها أديبة مستقرة، كما أن مؤلفًا أدبيًا لا يعرفه الكثيرون كان مغرمًا بالعصافير، هو الرسام عبد السميع عبد الله والد الزميل عمرو عبد السميع، وله إسهامات واضحة في الإبداع الأدبي، عمرو أيضًا فنان رسام وصحفي، كما أن حيوانا أو اثنين ظهرا في كتابات

عبد الفتاح رزق، أما النمل الأسود فقد داهم قصة جميلة ومبكرة لعبد الله الطوخي، وبعد ثلاثين عامًا هاجم رواية كاملة لعبد الوهاب، الأسواني، وكانت الذئاب الجائعة مجرد توصيف لأفعال أبطال أحاطوا ببطلة قصة عند محمود البدوي، أي لم يكن في القصة ذئاب من تلك الذئاب المقصودة بكتابتي هذه. بالتأكيد هناك أعمال قامت فيها الحيوانات – أو المخلوقات غير الإنسانية – بدور مؤثر، لم تصل إليها يدي، لكن الأكثر إزجاء للاستغراب أن هذه المخلوقات تركت أثرها في أسماء عدد وافر من الذين أسهموا أو أثروا في ثقافتنا المعاصرة: أمين يوسف غراب، ويوسف السباعي، ثروت عكاشة (العكاشة يعني العنكبوت) ومحمود السعدني (اسم للحمامة: السعدانة، والسعدان نوع من القرود) ومريد البرغوثي، لويس عوض (من أسماء صغار الإبل) والغيطاني (من ألقاب ذكور الجمال المسنة – أي الكسولة التي لا تبارح الحقول) وخيري شلبي (الشلبية المرأة ذات الصدر اللذيذ مثل نوع من السمك الصغير منه شلباية والكبير شلبية)، عصام الجمل (لكنه من أدباء الإسكندرية)، بدر الديب وعلاء الديب، محمود دياب،

عبد الحي دياب، سعيد الكفراوي (نوع من صغار الجياد يرهقه أهله بالعمل مبكرًا) وإذا كان هناك ثعبان يطلق عليه الأصلة يصبح الأمر متسقًا (إذا قمنا بتثنيته – مع إبراهيم أصلان) وفي الفارسية يطلق ما يوازي لفظ الطاهر على الفيل لأنه لا يقترب من أي نجاسة، بهاء طاهر لا يعرف ذلك، عبد الرحمن الخميسي (جيوش من الجمال) سمير غريب (اسم العفريت من الجن يستحضر خلال طقوس الزار مع شمهورش والسوداني والفتان والفطسان) وعبد الرحمن أبو عوف (حاولت أن أقع على مقابل أبو عوف دون جدوى وخصوصًا أنه يعني طائرًا كالبومة أو الغراب أو حيوانا كالذئب، ولذا فسوف يعوزني دليل لغوي صارم)، سعيد بكر (الفتي من الإبل)، كل ذلك وغيره كثير يأتي في مجال رغبتنا الكامنة أن يستغل النص الروائي ما يدور حولنا من مخلوقات لم تنج منها أسماؤنا، سيرا في أعقاب آبائنا المؤلفين: ابن ثور الهلالي وابن الرومي (أنا أقصد الديك الرومي وليس المواطن الرومي) وابن الكلب وابن الهيثم وجعفر بن ثعلب الأدفوي، وعشرات غيرهم لعلنا ننتبه ...

الكرامة، والرومانسية

محمد عبد الحليم عبد الله

●● حينذاك، في الحقبة الأولـــى مـــن عصـــري الحجري، خرجت وارم المشاعر من تحت أشجار زيزفـــون المنفلوطي، كي تجتاحني أعاصير تمرد إحسان عبد القدوس، فقد ظل الجسد الأنثوي – بتضاريسه الملتهبة – يشعل النـــار في كياني المعروق المشدود على شبكة العلاقات السرية التي تحكم الريف، أي أنني كنت أسعى كي أدين كل شيء حولي دون أن أدرك، وكان إحسان عبد القدوس يدرك ذلك دون أن ألمس رائحة البيوت القروية في قصصه المنشـــأة لحســـاب المدينة، وأجسادها تمور داخل شـــوارع وفـــراش وشـــبابيك وأرصفة وشرفات المدن، وأقصى ما أفعله – بعد أن أريـــق أنفاسي على وسادتي – أن أتصارع مع الرفاق في مســـارب الحقول، ثم ننهي المرقعة قفزًا من فـــوق أغصـــان أشـــجار الجميز إلى أعماق الترعة، حيث يحيلنا الابتراد المائي إلـــى مجرد صبيان هادئين عائدين – في امتثال – إلى بيوتهم.

حينذاك في أوائـــل العمـــر الحجـــري المتمـــرد – الفوضوي أفضل – انحرفت داخل قصة لا أذكرهـــا، كـــان

بطلها الصبي قد أعلن أنه يتعلم السباحة على رمل أو حصير، جذبتني الجملة مع أني أجيد السباحة، وجاءت لفظة (حصير) في موقعها تمامًا، فمع افتتاني بالقدرة الفائقة لإحسان عبد القدوس ليدفعنا لتحطيم الأسوار وشجاعة الإفصاح عن المشاعر، إلا أن الحصير التي قضيت على حلفائها عددا وفيرا من نوم سنوات العمر، ظلت بمنأى عن عالم إحسان عبد القدوس بما فيه من تمرد واجتياح، وكنت – حينذاك – قد وقعت في تجربة العشق المأمول – والمقرر، نعم: المقرر، ذلك أن قصص إحسان عبد القدوس وإثارة مشاعر المسحوقين ضد الطبقة الإقطاعية من مجلس قيادة الثورة، وما ترتب عن ذلك من صدور قانون الإصلاح الزراعي، وقيام عمر الشريف بالوقوف ضد زكي باشا رستم منتزعا منه ابنته فاتن حمامة، ثم ما أدى – بعد ذلك – من انتزاع فاتن حمامة من قصرها لحساب الأكواخ، هيأنا – نحن صبيان ذلك العصر – لمداهمة بنات الأثرياء، بالخطابات والحكايات، والمواقعات الخيالية المرهقة، لنعود – آخر الأمر – إلى ظلال بيوتنا الفقيرة التي تمتلئ أبهاؤها بالطمي الناشف، وغرف نومها بالحصير، كنت أتعلم السباحة

على رمل أو حصير، مع أنني كنت أفضل الجماعة الصبيانية عوما في الترع والجداول.

بعدها وقع واحد من الرفاق في قصة غرام مع بنت ناظر محطة سكة حديد البندر، وكنت قد توغلت كثيرًا فيما أستطيع الوصول إليه من كتابات هذا الذي يتعلم السباحة على رمل أو حصير، وأعترف بأن اسم محمد عبد الحليم عبد الله كان مصاغًا بشكل يخرجه من عالم ذوي الأسماء المؤثرة في الذاكرة: توفيق الحكيم، إحسان عبد القدوس، محمود تيمور، يوسف السباعي، أسماء لها قدرة واضحة في التشبث ضغطًا على طبلة الأذن، محمد عبد الحليم عبد الله، اسم عادي لا تستطيع أن تستبطنه في الكلام التلقائي بسهولة – هذا أن تذكرته، بطل إحسان فعل كذا، والسباعي كتب كذا، والحكيم نشر كذا، لكنك في حاجة إلى ثلاثية الاسم نصا بحذافيره حين تتعرض لمحمد عبد الحليم عبد الله، وحين نجحت في تنبيه رفاق القراءة إلى هذا الروائي الساحر، كان قبولهم له ضعيفًا فاترًا إزاء ما حاق بهم من مداهمات الكتابات الثورية المتمردة (بالمفهوم السلوكي وليس الفني) – وما يعنيه ذلك من نعومة بالغة في هذا الأسلوب تناوش المشاعر وتتلمس

الدفء بين الجوانح، وهو ما أفادنا كثيرا حين طلب مني صديقي الواقع توا في غرام ابنة ناظر المحطة، والذي يخرج الحكاية من انتظامها في القصص السائد في تلك الأيام من صراع طبقي دموي، طلب مني أن أكتب لحبيبته خطابًا – باسمه طبعا – حيث ستتولى أخت صديق لنا يمتلك أبوه طاحونة في البندر، توصيله إليها بصفتها زميلتها.

كانت التجربة جديدة تمامًا، ذلك أن الأمور كانت تجري قبل ذلك في الاحتكاك بأجساد البنات خلال جني القطن، أو تقشير كيزان الذرة الشامية، أو في الحلقات المتوالية لصناعة الكشك وطقوس الإعداد للختان أو الزواج، إنها المناسبات القدرية التي تتيح لنا إفراغ شحنات التوتر كي نتزود بالتوتر الجديد، وكل ذلك لا يصلح قاعدة للتعامل مع خطاب غرامي لبنت ناظر محطة السكة الحديد، كانت التجربة جديدة تمامًا.

لم أكن موضع ثقة صديقي المغرم العاشق، لكنه كان محرومًا من الخط الأنيق الجميل، مع غياب الحس الأدبي (لم أكن أعرف أني أتمتع بذلك حينذاك) في حين أني كنت نهمًا في القراءة والاطلاع، وكنت أعاني كثيرا حين أتحدث مع

أصدقائي عن نماذج أدبية، فلما تعرفوا على النماذج الأدبية كانت حوادثها هي المؤثرة، دون الأسلوب فلما تعرفنا على الأسلوب كان إحسان عبد القدوس هو المهيمن، فلما اشتعلت مشاعر صديقي، استعان بي، حتى إنه صنع لي معسكرًا في بيتهم، وزودني بالطعام والسجاير عند كل خطاب، إذ أن أباه صاحب محل البقالة ظل كنزًا لا يفنى، ولا تخضع له إمكاناتي المذهلة في ذبولها، لكن الخط الجميل، والمشاعر الدافقة، والأحاسيس الناعمة، كانت مصدرًا لأبدع سطورًا رقيقة على الورق السماوي الرقيق، والذي كان محمد عبد الحليم عبد الله هو المهيمن ذو السطوة، والقادر أن يقول إذا كان ثوبك وحيدًا فلا ينبغي أن يكون قذرًا، أتمنى أن أدفع عمري الآن كي أستعيد هذه الخطابات الغرامية المبكرة، والتي أدت دورًا إنسانيًا بالغ التأثير بين صديق عاشق لفتاة في المدينة، يراها كل صباح وسط زميلاتها في الطريق إلى المدرسة، ثم ينتظرها آخر كل نهار وسط زميلاتها عند الخروج من المدرسة، وكانت ترفع ياقة قميصها – أو بلوزتها – حتى تغطي جزءا من صفحة خدها أصابتها ببقعة احتراق صغيرة، لكنه لا يستطيع أن يلتقي بها.

سيكون مؤلما أن الأمر بين صـــديقي وحبيبتـــه قـــد أصابه اعتوار غير محسوب، إذ أن أباها نقل إلى العاصمة، المدينة العظيمة القادرة على منح فرص اللقاء للعشاق، فسافر حبيبها خلفها، والتقيا بالفعل، ولا أعرف ما الذي دار بينهمـــا على أرض الواقع بعد سنوات من سماوات الخطابات، فقـــد انقطعت هذه العلاقة لحظة تحققها، ربما كانت أجواء وأعماق ما حملته الخطابات لا يتطابق مع حبيب مغـــرم بالشخصـــية التي كان يمثلها سينمائيًا أحمد رمزي، مع أن صديقي هذا – وبتصميم غريب – عاد مندفعًا ليقـــرأ محمـــد عبـــد الحلـــيم عبد الله، وأزعم أن هذا الكاتب لا يزال موضوعنا المحبـــب في لقاءاتنا المتباعدة معا خلال الأربعين عاما الماضية.

***

لكني ظللت مفتوناً بعبد الحليم عبد الله، كان عـــالمي يتسع، والآفاق تنفتح عن أنواع أخرى من الكتابـــات الفنيـــة المتمردة، مع أن كثيرين كتبوا قبل إحســـان عبـــد القـــدوس ويوسف السباعي وعبد الحليم عبد الله، مكتبات الرصيف في العتبة والدراسة، وقصور الثقافة، ومكتبات الأصـــدقاء مـــن خلال ذلك عرفت يحيى حقي ويوسف إدريس ومحمد صدقي

وأبو المعاطي أبو النجا، وعايشته حين انقسمت الكتابات النقدية – سواء أكانت نقدًا أو استعراضا أو عرضًا لما يصدر – إلى قسمين رئيسيين. قسم يطوع ما يقرؤه لما يراه من نظرية نقدية حول الواقعية وما يترتب عن مزجها بالاشتراكية استجابة لما يرونه ضروريًا للمرحلة المهيمنة، وكان يوسف إدريس ونجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوي وإحسان عبد القدوس على رأس القائمة، وقسم يقابله، لم تتحقق فيه الواقعية الاشتراكية لكنه يحتل مناصب مؤثرة تستدعي الكتابة عنه – أو الدفاع عنه – مثل يوسف السباعي وفتحي غانم وإحسان عبد القدوس، ولاسيما أن كتابتهم تتضمن التمرد على ما كان لحساب ما هو كائن (ثم بدأت المسائل تأخذ وضعًا جديدًا حينما بدأ بعضهم – آخر الثورة – يتمردون على ما هو كائن لحساب ما هو مأمول – (فتحي غانم وإحسان عبد القدوس بالذات).

وبين هذين القسمين – أي في المسافة بينهما – وقع كثيرون ذوو قدرات إبداعية رائعة دون أن ينالوا حقهم في مجريات النقد، وفي التذكير الدائم بنماذجهم ومواقف أبطالهم

ذوي الأبعاد الفنية العالية، كان منهم: سعد مكـــاوي، وكـــان منهم محمد عبد الحليم عبد الله.

***

كنت قد نقلت إلى مجمع اللغة العربية فـــي مـــارس ١٩٧٠ من مشروع السد العالي، وهالني فور تسلمي للعمل – أن أكتشف من بين العاملين في المجمع اللغوي أبو المعاطي أبو النجا – والذي ظللت مفتوناً بروايته الأثيـــرة فـــي الأدب العربي المعاصر: العودة إلى المنفى، وكنت قد قرأتهـــا فـــي بغداد بالعراق، ومحمد عبد الحليم عبد الله، ذلك الذي ظللـــت مفتوناً به منذ أحقاب طويلة، والذي سوف يدهشك أن حســـه الأسلوبي الرقيق ظل مؤثرًا في افتتاح قصصي آنذاك (كـــان من الممكن أن أكون أكثر حذرًا أو أكثر خبثًا، أو أنام – ربما على ذراعي اليمنى وأترك نصف اليقظة لتسيل داخل عقلـــي المتناوم) مدخل قصتي (فصل مـــن قصـــة حـــب) وســـوف تلمحون أثر أسلوبه في تفكيـــر بطـــل (غصـــن الزيتـــون)، وتحركت من الفراش فألقيت الصبح مرتشعًا غير قادر علـــى التسرب من النافذة، (إنها النافذة الغربية)، ثم قال: الجو بارد، وقلت: الجو بارد، وقفت لأغلق النافذة فاختنق الهـــواء بـــين

مصراعيها، إن أثرًا أثيرًا وحثيثًا تعلق في فؤاد قلمي من هذا الكاتب الرقيق، والذي كنت أحفظ له مواقف أسلوبية لم أحفظها لأحد سواه: أحسست أنني إزاء شيئين يستحقان الرثاء والأسف: موقف زوجة أبي وفرار الزنبار، حين فوجئ الصبي الصغير بزوجة أبيه في أحضان قريبها في شجرة اللبلاب، ومنها أيضًا – حين تحقق حلمه بالالتقاء بحبيبته الصغيرة على سطح (شجرة اللبلاب): ورأيت بعد برهة مفاتيح الكنوز في يميني، لم يستعص علي باب، لا، ولم يزجرني حارس، لا تدع خيالك يجمح بك، فقد كنت نصف كريم، هذا الوصف لذلك الموقف لازمني فترات طويلة من عمري، وأزعم أنني قرأت بعض أعمال كثيرة من الأدباء، معظم ما كتب توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وطه حسين ويوسف إدريس ويحيى حقي، لكني قرأت كل أعمال محمد عبد الحليم عبد الله، أينما كنت وكيفما كنت، غصن الزيتون وسكون العاصفة والجنة العذراء والوشاح الأبيض والدموع الخرساء. وقصة لم تتم، وشمس الخريف والماضي لا يعود وأشياء للذكرى، أنني اعتصر الذاكرة، وأحاول أن أتذكر الآن هذا المقطع الذي نصبه خارج رواية غصن الزيتون:

يا إلهي لماذا تعذبنا بالحب مرتين: مرة لأننا أحببنا ومرة لأننا أحببنا من لا يحبوننا، أحس أن الدقة غير متوافرة في التذكر.

* * *

في مجمع اللغة العربية داهمني اضطراب، كان سهلا – ومن اليــوم الأول – أن تتعــرف علــى أبــو المعــاطي أبو النجا، غير أن محمد عبد الحليم عبد الله كان بمنأى عني، مع أن حجرة مكتبه الصغيرة جدًّا – والتي نقلت إليها مكتبي بعد ذلك بمدة – كانت أقرب إلى القاعة الواسعة التــي كــان فيها مكتبي المختلق بسرعة حتى يجدوا لي مكانًــا يناســب وضعي الوظيفي الهزيل، فقد احتل القاعة المراقــب العــام وعدة مراقبين للمالية والإداريــة والجلســات والمخــازن – خمسة مكاتب غير مكتبي، كانوا يضمرون عــدم الارتيــاح للأديب الغالي، وكان واضحًا أنهم لا يكترثون كثيرًا لفكــرة الأدب، وكنت – في موعظة مرت بي خارج المجمع – قــد انتبهت إلى أن جحافل المكتبيين ومكافحة طوائفهم يميلون – بالسليقة – إلى أن يكون ضحاياهم مــن المتميــزين، لكنــي لم أتصور أن يكون ذلك في مجمع اللغة العربية الذي يرأسه الدكتور طه حسين، الذي صاغ لنا وسائل التفكيــر الراقــي،

والتعبير الأرقى. ظللت مشتاقًا لحد الهوس لرؤية طه حسين، لكن ظروف صحته حالت دون حضوره للمجمـــع. إلا مـــرة بين أسبوع أو شهر. كان قد تجاوز الثمانين، يأتي بصـــحبة السيدة زوجته في سيارة قديمة. وعند باب المجمـــع – فـــي شارع مراد بالجيزة – يكون العمال منتظرين حـــول مقعـــد جاهز، حيث يحملون الدكتور الرائد العظيم من السيارة إلـــى المقعد، ثم يحملون المقعد على السلالم، كان المشهد معاكسًـــا لما تمنيت أن أحتفظ به لطه حسين في صورته المثلى، وفي غرفته أي وراء مكتبه الواسع يظل الرجل النحيف الناشـــف (هل تسمحون لي أن أقول: مجموع عظام مربوطة بالجلد؟؟) صامتا حين يدخل كبار موظفي المجمـــع لتحيتـــه، وكـــانوا ينحنون على يده المعروقة دون تقبيل، وبجوار إذنـــه كـــان المراقب العام يهمس له باسم ووظيفة كل موظف يدخل لتقديم التحية، محمد عبد الحليم عبد الله لم يكن من هـــؤلاء، كـــان يرفض أن يكون ثمة وسيط بينه وبين طه حسين، فبعـــد أن ينتهي كبار الموظفين من أداء طقس التحية، أو المثول، يأتي محمد عبد الحليم عبد الله من مكتبه ليحيي الدكتور الـــرئيس، وكان يصافح طه حسين وصوته واضح السؤال عن صـــحة

الدكتور الرئيس، لم يكن ينطق لفظة الباشا كغيره، وكان طه حسين يبتسم في وضوح، مغمغمًا بكلمات الشكر، وفي أول فرصة اختار طه حسين واحدًا آخر من العاملين ليصبح مديرًا عامًا للمجمع، مع أن درجات وأسباب استحقاق محمد عبد الحليم عبد الله كانت أكثر بروزًا، وهو ما أدى إلى أن يرفع دعوى قضائية غاضبة مطالبًا بحقه الذي أهدر، أن مساحة من الخبص واللمز والوشاية كانت تغلف هذه العلاقة، التي ساعدت على استشرائها صفاته المتصفة بالكبرياء الشديدة والتراحم الشديد، فقد كان محمد عبد الحليم عبد الله يضع كرامته على كتفيه وغير مسموح لأي أحد أن يقترب من مجال نشاطها، طلبت من العامل – الفراش أو الساعي أفضل – أن يحضر لي فنجان قهوة، وبعد أكثر من ساعة خرجت من مكتبي أسأل عن الساعي فوجدته نائمًا على مقعده في الصالة زجرت العامل بصوت عال، وكنت أعلم أن السعاة لا يسرعون في تلبية الطلبات إلا لذوي السطوة والوظائف الكبيرة، قلت للساعي أنه سيظل (فقريا ينام وراء الحوائط)، لكن محمد عبد الحليم عبد الله خرج من مكتبه صارخًا لينبهني أن هذا العامل إنسان مثلي، ولا يحق لي أن

أشتمه أو أسبه مهما كان، لم يكن الموقف يستحق ذلك، ولم يكن هذا الأديب يعرف أنني أستبطن قصصه وأحفظ تعبيراته، وقد جذبني أبو المعاطي أبو النجا إلى مكتبة لكي لا تتوسع دائرة اصطدامي بعبد الحليم عبد الله، ولاسيما أن كبار الموظفين تعاطفوا معي كي تزداد الكويرثة استشراء، وفي اليوم الثاني صحبني أبو المعاطي أبو النجا – بالقوة – إلى مكتب عبد الحليم عبد الله، الذي كان يتدفق اندهاشًا عاطفيًا في احتجاج أبوي كي لا أكون مثل غيري.

ولذا فقد زرته مرات قليلة – مع أن المكتب جنب المكتب، وتحفظت في إثارة ما أحمله له من حب، كنت أود أن يكون أكثر مرونة – مع أني أقل مرونة منه بمراحل، وقد حاول كثيرون تقديمه قربانا لطه حسين فور رفع دعوى المطالبة بحقه في منصب المدير العام، كان أبو المعاطي أبو النجا يفهم الأمر لمعايشته لهذا الجو سنوات سابقة، لكني كنت أكثر وصولا لبعض التصرفات الغامضة ضد عبد الحليم عبد الله لمعايشتي المحدودة لكبار الموظفين في موقع واحد، وحينما صدر الحكم لصالحه، تدخل مثيرو

الوقيعة كي يحرزوا نصرا لصالح طه حسين، فأقاموا صلحًا جعلوا بموجبه محمد عبد الحليم عبد الله نائبًا للمدير العام.

وهو ما حدث لي شخصيًا بعد ذلك بخمسة وعشرين عامًا، حيث يحتاج الأمر إلى إفساح مجال جديد لما يمكن لصاحب المنصب الإداري أن يحيقه بالمبدع الذي لا يجيد، ولا يريد، هذا الاستعباد وهذا التكالب ولو كان صاحب المنصب محسوبًا على الثقافة.

من الجلباب إلى مكاسبنا ... ومن الأدب إلى الجوع والقلق في كل العصور

أود أن أشير – في صبر – إلى أن الرسائل التي تناولت حادثة الاستيلاء عنوة – وبغباء عنيد – على كتكوتي (زهر الفول)، سوف تستبعد من هذه الصفحات، حتى لا نساعد على زيادة شهرة فاعلها، لاسيما أن كتبه ورواياته العديدة لم تصنع له اسما ذا شأن في قائمة الأدب، حتى ابتسامته الصفراء ظلت مريضة تثير الزهق والملل من الدنيا، وبالتالي يصبح مناسبًا أن نخلي القلوب من المرارات، ونترك السفينة تتجه إلى جزيرة السندباد المتألقة، أو نساوم النسر – ربما هو العنقاء المستحيلة – كي يلقي بنا حيث المتعة التي لا نهاية لها.

جلباب الآخرين

- يقال إن جلبابك الذي تزهو بارتدائه ليس جلبابك.

سامية أبو الفضل

عباس العقاد – مدينة نصر

القماش المصنوعة منه جلابيبي (جمع جلباب) لم يعد يتعامل معه سواي، إنه أرخص قماش عرفته مصر منذ رحلة سيدنا عيسى مع السيدة والدته على حمـــارة يجــري خلفهـــا يوسف النجار، الذي كان يرتدي جلبابًا من ذات نوع قمـــاش جلبابي، والذي ارتداه جميع فقراء مصر إلى ما قبـــل زهـــو الانفتاح بيومين، أنظر إلـــى اللوحـــات المعروضـــة حـــديثًا بالمتحف والخاصة بوجوه الفيوم، وعليك أن تنتبه إلى هـــذه الوجوه أو هذه الجلابيب.

مجال للتغيير

● ما الذي يدهشك الآن في هذا العالم؟

أحمد أبو سليم

إدفو – أسوان

عصفوران في قفص هدية لنا منذ سنوات اتضح لنـــا بعد فترة أنهما لا يبيضان، عقيمان، وظللنا غير قادرين على فحصهما (ربما يكونان ذكورًا)، أو إطلاق سراحهما، حتـــى طار أحدهما خلسة بسبب إهمال إغلاق باب القفص وكانـــت فرصة لتجاوز مرحلة العقم فأحضرنا عصـــفورين جديـــدين ليصبحا ثلاثة – نعم في قفص واحد، ومنذ ثـــلاث ســـنوات

أو أربع ننتظر أن يبيض أي عصفور منها، أي بعـــد هـــذا التغيير، دون جدوى، ودون أي فعل إيجابي، من أسرتي ذات الذكاء الخارق هل هناك ما يدهش أكثر وأعمق من ذلك؟

الأب عبد الصالحين

● ما الذي يخيفك ويوقفك عنـــد حـــدودك ويلقنـــك الدرس المناسب.

عايدة عبد الصالحين رأفت

الفيوم

غريبة: الأب اسمه عبد الصالحين والجد الأكبر اسمه رأفت؟؟

أسرار

● ما الذي تتمناه، ولم يتحقق حتى الآن؟؟

سلوى الفحام

المنيا كلية الدراسات العربية

هذا سؤال بالغ الشر – فلـــيس كـــل شـــيء يصـــلح للإفصاح، ابن بنتها – حفيدها – جاءني من أيام كي أتوســـط له في دخول مدرسة فندقية.

قبض الريح

● ما الذي كسبته من الأدب؟

هاني أبو راس

دمنهور – البحيرة

أود أن استفسر منك: هل أنت من عائلة أبـــو راس النوبية، والتي كان يعمل واحد منها – هو صابر أبو راس – زميلا لنا أيام بناء السد العالي؟ أما عن مكسبي الحقيقي مـــن الأدب فقد ظهر واضحًا في حادث وقع لي في قطار الصعيد، إذ أن لجنة التفتيش على التذاكر كانت تضم اثنـــين: صـــاح أحدهما معلنا دهشته أن يكون الأستاذ مستجاب – الذي هـــو أنا – من ركاب القطار؟؟ واستغرب العضو الثاني الذي قـــام العضو الأول الصائح بتعريفه بي، تعريفًا مؤثرًا ومبالغا فيـــه يتجاوز تأثيره شهرة عادل إمام وأحمد زكي ومحمد حســـنين هيكل وأحمد رجب وتحية كاريوكا ويســـرا ويـــونس شـــلبي وتطور الأمر بسرعة حينما تناول التذكرة من يدي رافضًا أن أتكلف مليما واحدًا في قطار يتشرف أن أكون فيه، كان جميع ركاب عربة القطار قد توجهوا باهتمامهم نحوي، فأحسست – في اللحظة النادرة الساخنة القوية بمعنـــى أن تكـــون أديبًـــا،

وتراجعت إلى الخلف كل آلام العمـر وعذاباتـه وشـجونه وأحزانـه وأنـا أبتسـم فـي تواضـع، ذلـك أن المفـتش – أو المحصل – المتعصب لي أشار لواحد من الركاب الذين يقفون بين فواصل العربات المكيفة – وهم عادة ممن فشـلوا في الحصول على تذكرة، وأعطاه تذكرتي كي يـدفع ثمنهـا دون أن يقع في الغرامات المشهورة التي يتحملها من لا يملك تذكرة، حاولت – مع كل ذلك – أن أثنيه عن ذلك، لكنه ظل – عالي الصوت – يصرخ أن الأستاذ مستجاب – الذي هـو أنا – أعلى وأعظم من أن أدفع مقابل ركوبي قطار الصعيد، وأنا الصعيدي الشهم الذي رفع رأس – لا مؤاخذة – الصعيد أستحق أن أركب قطارًا خاصًا ... وبمفردي ...!

لقد تمت هذه المسألة بسرعة مذهلة، وتناولت النقـود غير مصدق، والمفتش الآخر يضحك مستسلما، والفخر يغزو جوانحي التي أجهدتها عوامل الإرهـاق القـديم، وشـكرني الراكب مبتسمًا – وموافقًا، دون أن يفهم، بعدها غادرت هيئة التفتيش العربة، وبدأت أعيد ترتيب ما تناثر داخـل نفسـي تمهيدًا للاسترخاء موجها عيوني نحو النافذة حتى نمت ...

بعد ساعات جاء المفتش، طلب مني التـــذكرة، كـــان واضحًا أنه لم يكن ضمن اللجنة المشار إليها، ظلت يـــده – المتشبثة بالقلم – متوجهة لي واليد الأخرى متشـــبثة بـــدفتر المخالفات، حاولت أن أشرح له ما حدث – وأنا أبتســـم فـــي حرج، وحاول من يجلس أمامي أو خلفـــي أو بجـــواري أن يشرح لكن الرجل قال في هدوء: التذكرة من فضلك ...

دفعت ثمن التذكرة – من جديد – إضافة إلى مبلـــغ الغرامة، مع مراعاة أن الشخص الذي حصل على تـــذكرتي اختفى، والمدهش أن إحساسي بالمجد الأدبي، اختفى أيضًـــا، وظللت مفتعلا الاسترخاء وعيوني تنظر من النافذة إلى كـــل الوطن، كي أشكره على هذا الذي كسبته مـــن الأدب ... يـــا هاني أبو راس ...

نسخة من الجمجمة

● بحثنا عن الرواية التي كتبت عنها وعن مؤلفهـــا إدريس علي (انفجار جمجمة) دون جدوى، فأين نجدها مع أننا بحثنا عنها فيما يصل إلى محافظة قنا من مطبوعات هيئة الكتاب والثقافة الجماهيرية، إننا في شوق لقراءة مثـــل هـــذه الرواية التي كتبت عنها بهذا الشكل المتعاطف بل والمتعصب

– بالطبع للنصوص الجيدة، وهو ما نعترف بأنـــه ســـاعدنا كثيرًا فيما تعرض له من أعمال أدبية في مختلف المجـــلات، كي نتعرف على أعمال أدباء قد لا نهتم بهم لولا تقديمك لهم.

أبو المجد أحمد مساعد مدرس

إسنا – قنا

صوتك – يا أبا المجد – عال وصارخ حـــول دوري في تقديم أعمال الزملاء، وقد قمت بالتخفيف من رســـالتك – وما فيها – كثيرًا، أما رواية إدريس علي – انفجار جمجمـــة – فهي صادرة عن المجلس الأعلى للثقافة، والذي يتبنى الآن إصدار أعمال لها طابعها المؤثر، واعتقد أن العمل كان نتاج فترة تفرغ حصل عليها المؤلف ثم قطعها وعاد إلى عملـــه، وأزعم أن مثل هذه المؤلفات – ذات الشأن – لا نجدها عنـــد باعة الصحف والمجلات، بل قد تكون في المكتبات المركزية في عواصم المحافظات، أكتـــب لـــي عـــن طريقـــة ســـهلة – أو مؤكدة – لتوصيل نسخة إليك، فعنوانك هذا لا يكفـــي، قبل ذلك أرجو أن تبحث في مكتبة قنا على هذه الرواية.

وآمل أن يتولى المسئولون التوسع في الإصـــدارات وهو ما لا تقوم به المكتبة الخاصة بهيئة خاصة.

العدو الأكبر

● بالتأكيد هناك أعداء يتربصون بك، فمن هم؟ وإن كنت شجاعًا عليك أن ترصد لنا أسماءهم واتجاهاتهم، مع ملاحظة أنك لم تعد شجاعًا كما تعودنا، وإلا فمن الذي يلف حولك وحول كتاباتك كي يقضي عليك قضاء مبرما.

عواطف يوسف واسيلي

جميلة أبو السعد

حامدة محمود عبد المؤمن

آملة السيد إبراهيم

زاكية السيد إبراهيم

السيوف – إسكندرية

الجوع ...

عميل سرى

● في ندوة – من أسابيع – بقصر ثقافة المنيا، قام (...) بالهجوم عليك متهما إياك بالوصولية، فما رأيك؟

أحمد عبد العال

ملوي

جميل أن يكون في العالم بعض المجندين المدربين لخدمتنا، وأعترف بأنني حاولت أن أتذكر شيئًا – أي شيء – عن المهاجم المذكور، دون جدوى ولذا فقد رفعت اسمه من الرسالة، مع تأجيل الدفاع عن اتهامي بالوصولية إلى فرصة أخرى، لاحظ يا أحمد عبد العال أن هذا الشخص الغامض السرى له عليك فضل كبير، إنه وراء نشر اسمك هنا.

أين مكتبي؟؟

● ذهبت إليك في مكتبك بمجلة (المصور) ثم توجهت إلى مكتبك في جريدة "أخبار الأدب" فلم أجد لك أثرًا، فأين يكون مقر مكتبك؟؟ أم أنه مكتب وهمي؟؟

جميل عبد القادر الساوي

المحلة الكبرى

قد أكون مسئولا عن بعض ثقافتك، لكني لست مسئولا – بالتأكيد – عما يناقض هذه الثقافة، وكنت أتصور أنك سوف تتوجه – باحثًا عن مكتبي – إلى جريدة "الأسبوع" ثم إلى مجلة "العربي" الكويتية، ثم إلى مصلحة الضرائب، أو الأحوال المدنية، أو إدارة الفيش والتشبيه، أو إلى اتحاد الكتاب، أو إلى الجزار الذي نتعامل معه – ومحل جزارته

في مواجهة الكوبري الأول على ترعة الزمر – وهو يغلق أبوابه يوم الاثنين، لكن عنواني الأكثر دقة وسهولة، والذي يضم مكتبي، وهو ذلك الذي لا تصدر منه أية جرائد أو مجلات، ويندر فيه الكلام عن الثقافة، إنه بيتي ...

خارج العصور

في كثير من قصصك نشعر أنك تستحضر عصرًا مضى كي يتوافق مع العصر القائم، فما العصر الذي تحس أنك تتواصل أكثر معه، وتتمنى أن تعيش فيه ...

رمزي عبد الشهيد

أهناسيا – بني سويف

السؤال مضطرب، لكني عجزت عن الهروب منه، ورحلتي خلال كل العصور لا تدعو للزهو أو الاطمئنان، أكثر من أسبوعين مع هامان – وزير فرعون مصر – والذي كان عميلا للصهيونية، ثلاثة أيام في مضارب حاتم الطائي منتظرًا أن يذبح جواده الوحيد كرمًا وحفاوة بالضيوف، ولم أنتبه إلى أن حاتم الطائي لم يعد يملك جوادًا بسبب الإسراف في الكرم، عدة قرون مع عمرو بن العاص في مصر، بعد أن عزله الخليفة العادل عمر، ثم بعد أن أعاده

الخليفة المترف عثمان بن عفان، وخمسة أيام مع أهل النوبة أثناء التهجير الثاني من بلادهم إلى مناطق جديدة أيام السد العالي – التهجير الأول كان أيام بناء خزان أسوان – ولم يقم به جمال عبد الناصر، ما يقرب من خمسين ألف قرن منذ هزيمتنا في يونيه ١٩٦٧ – ولا أزل أعيش فيها أربعة أيام مع امرأة بالغة الوسامة والجهل والجمال، والغباء في منطقة مقطوعة، خمس دقائق مع آدم وحواء قبل أن يقعا في مأزق المكيدة أو المؤامرة، التي أدت إلى طردهما من أجمل موقع عشت فيه طوال عمري، الجنة، دقائق مذهلة أخرى – متفرقة – بين جثث الفتح العثماني والصراع المملوكي والانتصار الكردي والزهو الفاطمي، ربع ساعة – عابرة – أيام الهكسوس، وهذا الربع ساعة المشار إليه يتملكني حتى أكاد أزعم أن أحمس الأول كان وهما ...

لاحظ أنني – يا أخ رمزي – لم أقترب من دقائق قليلة عشت فيها أيام دقلديانوس، هذا الذي طارد المصريين الذين آمنوا برسالة السيد المسيح في بواكيرها – أي قبل الإسلام – وأدى إلى انتشار ظاهرة الأديرة الكامنة بعيدًا في الصحراوات ...

أما اليوم فأنا أعيش في عصر مستجاب الرابع، هل سمعت عنه؟ ولا أنا ...

وبعد

فهناك رسائل تجذبها الرغبة في السخرية فتخرج عن حدود السخرية، كما أن ثمة رسائل كئيبة وبالغة السوداوية تحول بيننا وبين التشابك أو التفاعل، لكني أرى رسالة من السيدة (ل. م. الجيزة) – ولا أعرف لماذا تختفي وراء الحروف دون أبراز اسمها، وهي تصارحني بأنها مدرسة، لكنها ترى أن الثقافة التي يتم تدريسها في المدارس لا علاقة لها بالثقافة السائدة – الثقافة الجادة المنشورة في الكتب والمجلات والمتخصصة في النقد الأدبي والشعر والقصة.

وهذه قضية مهيمنة على أذهان الكثيرين، حتى ولو كانت كلية جامعية قد اختارت نصوصًا معاصرة لزملاء الفترة الأدبية الحديثة، إذ أن ذلك يأتي بشكل إشاري دون أن يكون ذا وزن يتعادل مع الثقافات الماضية المهيمنة على العقلية التي تنظم مناهج التدريس أو البحث الأكاديمي.

وسوف أعود مرة أخرى لهذه الرسالة بشكل أكثر توضيحًا، لما فيها من أمور متعددة لا يمكن لنا – وبمفردنا –

أن نواجهها إلا بعد الاستقصاء الواجب لمقـــررات ومنــــاهج مختلف سنوات التعليم – والعالي على وجـــه الخصـــوص، والذي قامت كثير من الجهود المخلصة فيـــه بالتعامـــل مـــع النصوص الحديثة في الأدب، في رسائلها وبحوثها ومجالات اهتمامها، وهو أمر يحتاج إلى مدارسة وتعامل مختلف عـــن الأفكار السائدة.

وإلى رسائل أخرى ... قل إن شاء الله

الغُلب ... لأصحابه

●● قررت أن أتصرف مثل أخينا معوض الذي ساب الغلب لأصحابه (واللي معاه غلب ينام به ويصحو به)، ونقطة تركيز الغلب والإرهاق والقلق – الخاص بي – هي العاصمة الكبرى، المدينة الجميلة التي ظلت معشوقتنا التي نهيم في أحيائها وأمواتها وشواطئها وصحاريها، لكنها خضعت هذه المدينة المعشوقة لتأثير (عمل) قام أحد القادرين المتخصصين في الأحجبة والتمائم بوضعه تحت أرضيتها، لتنفث العوادم والزحام والضجيج والألفاظ النابية: في الجو وعلى الأرض وبين سراديب المحلات والسوبر ماركت وعلى خشبة المسرح ودور العلم، وتحت أستار الهمس والنميمة والوشايات وأنواع عديدة من الفن العشوائي وهو غير الفن التلقائي بالتأكيد.

ولأن معوض – الذي ساب الغلب لأصحابه – يرقد في الأعوام الأخيرة بين طيات جهازي العصبي (وجهازك أيضًا يا صاحبي)، فقد قررت أن أرحل متوجها إلى أي مكان في القارة المصرية، العيال – عيالي – لم يعودوا عيالا، والحب لم يعد حبا، والأصدقاء غارقون في المهام الوطنية

الكبرى تمهيدًا لافتتاح معرض الكتاب، وكل واحد يسعى كي يجد الموقع المفضل في أركان الندوات واللقـــاءات، وأمـــي العزيزة تركتها في حماية أو حضانة أو رعاية أخي – فـــي العاصمة الكبرى أيضًا، وهو – أخي – أصلح مني في القيام بالواجب إزاءها – لدرجة الاستشهاد، حيث يحتاز – نتيجـــة لذلك – أكبر مساحة في الفردوس بعد عمر طويل.

لكن زوجتي – رعاها الله عـــدة أحقـــاب أخـــرى – قررت أن ترافقني في الرحلة على أساس أنها ليســـت مـــن الغلب المشار إليه، وأنني في حاجة ماسة إلى رعايتها، مـــع أنها تعلم – علم اليقين – أن فاسكودي جامـــا أو الإدريســـي أو أحمد حسنين باشا أو ماجلان أو أميـــر جوفاسبوتشـــي – وجميع الرحالة العظمـــاء والمكتشـــفين ذوي الشـــأن – لـــم يصحبوا زوجاتهم في رحلاتهم، حيث كانت رحلاتهم ســـوف تفقد الهدف الأصيل من أهدافها – ومن معناها أيضًا.

لكني – مثل أي شخص معاصر – لم أستطع إبـــراز رغبتي في الانفراد بالرحلة التي هدفها الأساســـي أن أكـــون وحيدا، فإن لم تتحقق الوحدة: فليس مع زوجتي بأية حـــال، فاستسلمت في رصانة الأدباء الذين تشغلهم قضـــايا تـــزداد

سخونة بعيدًا عن الزوجات، ولاسيما أن ملامح زوجاتنـــا – في الأحقاب الأخيرة – بدأت تتشكل في ملامـــح الأمهـــات، وقررت أن أبدو سعيدًا، وأن أعتبر الأمور تسير في الاتجـــاه الصحيح، هذا الاتجاه الذي أدى بي – مـــع زوجتـــي – أن أغادر بيتنا في العاصمة صباحًا كي نصل إلـــى بيتنـــا فـــي ديروط عند الظهيرة، لاحظ أنـــي ظللـــت – رعـــاك الله – مبتسمًا.

كان الجو في ديروط – بلـــدنا – ســـاحرًا، الشـــمس الدافئة والآفاق الممتدة صافية دون عوادم وتلـــوث، ترعـــة الإبراهيمية تحت النافذة مباشرة تدغدغ الأحاسيس وتســـتثير عالم الطفولة المهجور – أو المحطم – أسفل طيات الرجولة المخنوقة بالمسئوليات، وإزاء طفـــولتي – أو صـــبيانيتي – المستثارة، ظللت أتجول – ظهيرة كل يـــوم – فـــي أنحـــاء قريتي، محاولا الابتعاد – قدر الإمكان – عـــن التكوينـــات الجديدة المعاصرة فيها، والتي أخذت من المدن أسوأ ما فيها: أصوات الراديو أو المسجلات في كثير من مواقع التجمعات في الدكاكين والمقاهي والحواري – وأمام البيـــوت، أســـبوع كامل أتجول مواجهًـــا بعـــض الصـــعاب التـــي يستحســـن

ألا أحصرها هنا، والتي في قمتها أن فردة حذائي انفصلت إلى جزءين: النعل في ناحية والجلد في الناحية الأخرى، وكانت الصحف تتوالى حاملة أخبار تجهيزات معرض الكتاب، وكل واحد ألتقي به يسألني عن سبب عدم وجود اسمي بين جميع المدعوين من المفكرين والأدباء وقادة الرأي العام والقادرين على تحليل الظواهر والغوص في شئون الأمة، ليكشفوا عن براعة تفوق كثيرًا براعة أعضاء مجلس الشعب في الجدل حول كارثة حق "الخلع" الذي يبيح للمرأة مواقف جديدة ضد زوجها أو بيتها، لاحظ أنني هنا شديد التعاطف مع الاتجاهات الرجعية جدا أو التقدمية جدا ... أيضًا.

ولأني لا أملك إجابة تشفي غليل جمهور أصدقائي في ديروط، مع عدم قدرتي على إبراز جنوحي – في الفترة الأخيرة – إلى الهواء الطلق دون أن يكون بيني وبين فاروق حسني أو جابر عصفور أو سمير سرحان أو حتى حسن سرور (المشرف على المقهى الثقافي) فقد شعرت برغبة جديدة في السفر من قريتي – أيضًا – وأسيب الغلب لأصحابه، حيث سافرت – ترافقني زوجتي الحبيبة – إلى

أسيوط – عاصمتنا الجليلة – بدعوة من مديرة ثقافة المنطقة نادية الشابوري، لنسعد بالاستمتاع سماعًا لفرقـة الموسـيقى العربية التي تكونت حديثًا هناك، وكانت – بالفعـل – ليلـة بالغة الجمال مفعمة بالألحان من مختلف أجيال الموسـيقيين المصريين التي أداها عازفو الفرقة بقيـادة حسـن صـالح المبتسم الودود.

وفي الصباح تجولت مع زوجتي في أسـيوط، ثـم توجهنا إلى جبل درنكة الذي يحتوي على أعمق بقعـة فـي بلادنا وصلت إليها السيدة العذراء مريم مـع ابنهـا عيسـى المسيح برفقة يوسف النجار، والموقـع يعبـق بالإحسـاس المصري التاريخي الذي يحنو عليه جبل مريم، وكـان الأب القسيس الذي رافقنا دائم الابتسام وهو يشرح لنا التضـاريس الدقيقة للمكان، والذي تقع تحت أقدامه المنطقة التـي قامـت بتجديدها القوات المسلحة بعدما أصابها دمار السيول.

ثمة ارتباطات مع أصدقاء بأسيوط كـان يجـب أن نستريح في الفندق تمهيدًا للقاء ليلا، غير أن قلقا عارما بـدأ يداهمني، فقررت العودة إلى بيتنا في ديروط، لم يكـن ثمـة سبب يدعوني لذلك، حتى رغبات أصدقائنا فـي القريـة أن

نلتقي بهم بدأت تتراجع، مع أن الجو ظـــل بـــالغ الجمـــال، وجاءت أول مكالمة من ابنتي – سوسن – في العاصمة عن اضطراب الجو وصراخ الرياح الذي أدى إلى قذف قفـــص العصافير من موقعة في الشرفة – بالدور الخامس – ليتحطم في الشارع ويصبح نهبا لمخالب القطط الضالة، ثم – وفـــور أن أوغلنا في الليل – جاءت مكالمة أخرى من أخي، والـــذي قامت بالرد عليه زوجتي، التي صرخت في اضطراب شديد الانزعاج، لتسقط سماعة التليفون منها، وكان الخبر المـــؤلم: ماتت والدتي في العاصمة وبدأنا نعد العدة لاستقبال جنازتها طوال الليل، كي تصل إلينا في الصـــباح المفعـــم بـــالحزن الغامر، دون أن نترك الغلب لأصحابه ... حيث لا صـــاحب للغلب سوانا.

نظرنا من جديد إلى:

هؤلاء الآباء ... وحكاياتهم التي تمزق القلوب

● ● عذرًا، لابد لي – هذه المرة – أن أرتدي لباس الواعظ، وأن أغامر بالدخول في عالم لا يتناسب معي، لكن الأمر – القائم – يدفعني إلى ذلك، ولاسيما أن ما بيننا – يسمح لي بالعوم في غير بحيرتي، والقفز من فوق أسوار قد تكون وهمية، فالآباء المعاصرون في محنة، والآباء تشمل الأمهات، وتشمل الأجداد، وكبار الإخوة والأخوات، الذي أرهقوا أنفسهم في تربيتنا، بل وأصابتهم تضحيات مروعة، لا نستطيع أن نقوم بها نحن إزاء عيالنا – كما قام بها أباؤنا وأخواتنا وأجدادنا.

والقرآن الكريم شديد الوضوح في هذا، في سورة الإسراء: **﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾**

ثم يتابع القرآن الكريم التأكيد على هذا الواجب بصيغة الأمر الواضحة: **﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا﴾**، الحكماء

والفلاسفة والمصلحون وخبراء التربية – في كل العصور – يعملون لحساب الآباء ألف حساب، كما أن كل الأديان الأخرى، السماوية والأرضية، شديدة التصميم على ضرورة ألا تقل أف لهؤلاء الذين ضحوا في سبيلنا، أي ألا نتضجر منهم، ولا نشعرهم بمرارتنا إزاء سلوكهم أو تصرفاتهم، إنهم الآباء على كل المستويات: التوالد والتربية والرعاية ...دعوني أعتذر مرة أخرى للدخول في هذا الموضوع المرير.

في جريدة "الأخبار" – ١٢/ ٣/ ١٩٨٨ – تحت عنوان صغير ثم عنوان كبير:

جحود الأبناء – عم حسن طردته دار المسنين، وتخلى عنه أولاده الستة المتعلمون، أعوذ بالله، أي جحود أكثر صلافة، وإيذاء أكثر من ذلك والأنجال الستة المتعلمون ثلاثة ذكور وثلاث إناث، تزوجوا جميعًا، وهم موفقون وناجحون في حياتهم، وهذا الذي هم فيه من راحة وارتياح من أثر تربية هذا الأب – عم حسن – الذي صورته الجريدة رافعًا ذراعية أعلى مستوى وجهه في حالة استنجاد صارخ ومروع، يهد الحيل ويهدم كل العواطف، إنها ضد القيم

الدينية والأعراف والموروثات ومتون الأهرام وحكايات الأجداد: المسلمين والكفار.

وحكاية عم حسن – التي تقطع القلب – تتكرر في ذلك العصر المضطرب ذي الأنياب واللسان الطويل، في كل جماعة أسرية أو عائلة أو قبيلة سوف تجد هذا الأب – أو الأم، ولا عذر لأنجالهم في إيذاء هذا النوع من الآباء، عمتي نفيسة قضت آخر أنفاسها في حجرة كئيبة منزوية شديدة الرطوبة، مع أن عددًا وافرًا من خلفتها – ثمانية – ذكور وإناث، بنوا بيوتا واشتروا أرضا وزوجوا أبناءهم، دون أن يقدموا الرعاية الكافية لأمهم، هذه التي كانت أختي – كلما زارت بيتي – تهمس لي عطوفة وحانية أن أساعد عمتي، وهو ما يجعلني أحتد وأطلق الأحكام المريرة على إنجابها العديد من الصنف القاسي ذي العواطف المتجمدة والحجرية أيضًا، واحد من أهل أبي رفض أبناؤه أن يدخل بيتهم – وهو بيته أساسًا، وحتى حين مات مهملا في الخلاء، رفضوا أيضًا أن يتم تشييع الجنازة من البيت، صديق لنا استطاع أن يصبح صاحب دكتوراه في الآثار، إنسان جميل هادئ الطبع، مغرم بالموسيقى والفنون الجميلة، ترك له أبوه

– ذو العلم والجاه – بيتا كبيـــرًا، ووالـــدة شـــديدة العطـــف والحنان، وما كاد يتزوج حتى اشتعلت نار الكراهية في هـــذا المنزل الجميل، كان صديقي وزوجتـــه – المتعلمـــة – فـــي ناحية، ووالدته الطيبة في المواجهة، وتدخل أبنـــاء الحـــلال فقرروا عزل الأم بعيدًا عن حياة الابن، وهو الابن الوحيد – مع تقرير مبلغ مالي يدفعه شهريا لها الابن، ومع ذلك ظلـــت النار مشتعلة في البيت الكبير، حتى إن الوالدة الطيبة لجـــأت إلى ابنة زوجها من زوجة أخرى – لتقيم عندها، رافضة أن تعود إلى بيتها ما دام فيه ابنها وزوجته، وقد رحلـــت وتـــم تشييع جنازتها من بيت بنت زوجها، وكان ذلك ســـببًا فـــي خلاف بيني وبين صديقي هذا أدى إلى قطيعـــة لا تـــزال – حتى اليوم – قائمة بيننا، كنت متعاطفًا مع الأم بالطبع، كمـــا أني سوف أظل أتعاطف مع أي أم وأي أب، ولاسيما بعد أن أصبحت أبا مزمنًا، وجدًا جديدًا لأحفاد، أي لم أصبح مزمنًـــا بعد.

الجرائد والمجلات مفعمة بأنواع من هذه الحـــوادث والأفعال التي يشيب لها شعر الولدان ودون أن نشت بعيـــدًا، نعود إلى نموذج الوعظ الأول: عم حسن، هذا الذي طردتـــه

دار المسنين وتخلى عنه أولاده الستة المتعلمــون، ووقــف رافعًا يديه في بؤس بالغ يجعلنا جميعا نصلي من أجله كـــي تتحرق مثل هذه الذرية بالغة القسوة والانحطاط ...

في هذا الحادث عدة نقــاط نــود أن نضـــعها فـــي الاعتبار، الأولى أن هذا الرجل كان يدفع في دار المســنين بين ١٥٠ و ١٨٠ جنيها، أي أنه ليس مــتطفلا أو محتاجًــا أو مستغلا، كما أن الأمر وصل ببؤسه – ثانيا – أن ذهــب إلى ابنه المدرس في المدرسة – بجلباب وقبقاب – ليستعطفه لكن الابن القاسي نهره، ورده خائبًا، كما أنه – ثالثًا – قــام ابنه بنقل نفسه إلى مدرسة أخــرى مجهولــة – لا يعــرف طريقها هذا الأب المسكين.

فإذا أضفت – رابعًا – أن القلوب الستة (ثلاثة ذكور ثلاث إناث) أخذوا موقفًا موحدًا من هذا الأب، يصبح لزامًا علينا أن نواجه الموقف من زوايا أخرى – لا نحب مواجهة المواقف منها عادة ...

لقد تطورت الحياة – هأنذا أستمر في الموعظــة – تطورًا خطيرًا لم يتطور الكثيرون معها بالنسبة نفســها، إن الأب المصري – منذ نصف قرن – كان هو الأب الأكبــر،

يتسع بيته كلما اتسعت أرقام أنجابه، وكان مـن الممكـن أن تسب أو تجرح إحساس رجل لأنه لم ينجب، إنه – في عرف ذلك الوقت المتخلف – امرأة، ويمكنك أن تنال مـن كرامـة رجل لا ينجب سوى الإناث، علـى نفـس نهـج العـرف المتخلف، وكان الأب العظيم هو رب البيت والغيط، والأمـر والنهي والإنعام والعقاب والذكور، وكل ولـد يتـزوج عـن طريق والديه إرضاء ورضوانًا، وكل ولد يتزوج تختلق لـه حجرة – أو غرفة – اختلاقًا لكي يظل كل الأولاد تحت مظلة أبيهم وأمهم، حيث يداوم الوالدان في الاستمتاع بمـا يذيعـه الآخرون عنهم من امتثال عيالهم لأوامرهم: عيالهم حتى ولو أصبحوا شبابًا منجبًا أو رجالا ذوي بأس، الأب القـادم مـن هذه المجالات، والذي تشبع جهازه العصبي بما كان يصـدر من أوامر أبي زيد الهلالي لأولاد أختـه يـونس وأشـقائه، يصعب عليه – أو يستحيل – عليه أن يدخل هذه الدار فـلا يجد العيال تحت أمره، ويصعب عليـه – أو يسـتحيل – أن يرى لأولاده حياة خاصة وأمزجة خاصة وعلاقات خاصـة، كل شيء – معروف أو مجهول – لابـد أن يضـفي عليـه الأبوان الرضا، بالقول أو الفعل أو الصمت، إنهـم (عـزوة)

أبيهم وأمهم وجدهم كذلك أنهم الذين يعتمدون سلوك ومسالك ومشارب كل الشعب القائم في حوزتهم.

لم ينتبه أحد أن الأب مخلوق يقع في ما يقع فيه بقية الخلق، من صفات أو أفعال، البخل والغيرة والجهل والسخف والطمع، بالإضافة إلى عوامل نفسية كثيرة: محسوسة أو معروفة، إن أم دكتور الآثار – صديقي القديم – لم تكن تستطيع أن – تتصور أن ابنها الوحيد، الذي ترك آثاره في حلمات أثدائها. وفي أعماق بطنها، وفي قرة عيونها، هذا الذي قامت من أجله مبكرة وحرمت نفسها من المأكل والمشرب حتى تطمئن على مأكله ومشربه، هذا الابن بالذات، ينام – آخر الأمر – مع أنثى ذات حلمات، وعمق عواطف، وقرة فؤاد، والأنثى الأخرى – تضع الأحمر والأخضر في خدودها، ورموشها، وترتدي من الملابس الفخيمة ما لم تقم بارتدائه الأم المكافحة ... مما يدفعها إلى التوتر الدائم، وافتعال ما يدعو للخلاف، وإشعال النيران في البيت الهادئ ... إنها تريد ابنها، طفلها، ولأنها تعلم أن طلبها مضحك وغير ذي موضوع فإنها تكابر حتى تحيل البيت إلى جهنم ... نحن جميعًا نتعاطف معها، ونقف ضد ابنها

وزوجته، ونكرر لهما دائمًا: لا تقل لهما أف، ونعـود إلـى بيوتنا، النار تظل ملتهبة تحت رماد الصمت، تشتعل في أول احتكاك ...

حينئذ يصبح مناسبا أن يقوم الوالدان بابتزاز الأنجال (والمثنى هنا يعني الأب بمفرده أو الأم بمفردها أيضًا) وتقوم الأم باللجوء للآخرين واستثارة عواطف الآخرين، والتنبيـه إلى الأخلاق المفقودة، والمبادئ الضائعة، الابن (كان واحـدًا أو أكثر) لا يملك إلا الهروب الغاضب بعد أن فشلت وسـائل الترضية، إن اللعبة القائمة الآن بين الآباء والأبنـاء ليسـت بعيدة عن المفهوم النظري للسلطة، والواقع الحقيقي المناقض لاستعمال السلطة، إن السلطة القبلية التي تهيمن على شعوب العالم الثالث ترتدي أزياء الدساتير والانتخابـات والمبـادئ والأسس الديمقراطية، لكنها – هذه السلطة العصرية – ترقد فوق المصطبة، وتنام داخل الخيمة، وتنادي على أتباعها من داخل الكهوف القديمة، وتمسك في يـدها النبـوت والعكـاز والسوط والأوامر والموروث من أدوات التهذيب ...

علينا الآن أن نعود لصياغة أكثر واقعية لحكاية عـم حسن، ذلك الأب الذي يشكو من القلوب الحجرية الكافرة التي

يحملها أبناؤه الستة، ثلاثة ذكور وثلاث إنـــاث، وزوجـــاتهم وأزواجهن بالطبع، مع إضافة هذا القلب الحجــري الجامــد الذي رفض العودة إلى إيوائه بدار المسنين، مما أدى به إلى أن يذهب إلى واحد من أبنائه المدرس بالمدرسة (بالجلبـــاب والقبقاب) فيقوم الابن بطرده مكسور الخـــاطر، ثـــم يهـــرب المدرس إلى مدرسة أخرى مجهولة لا يعرف طريقهـــا هـــذا الأب – يعني أن الأب عاد من جديد لمدرسة ابنه – بالجلباب والقبقاب ...

هذا الرجل الأب لا يطاق، ولا يتحمله أحد، والعذاب الذي يعانيه ناجم من كمية الأنانية غير المرئية التي تكتنــف أعطاف الأبوة فيه، ودليلنا على ذلك أن الأنجال الستة اتفقوا بالطبع دون مباحثات – أو بعد مباحثات – ضد هـــذا الأب، قلوب الأنجال جميعًا تقع في عناء تعذيب الأب، وهو عنـــاء يفوق كثيرًا أي عناء آخر، ليس سهلا تحمله بـــالمرة، لكـــن الأب الذي يصعب معاشرته يظل محتميًا تحت هذه الصـــفة المقدسة (الأب)، وتنهال على الأبناء اللعنات، فإذا أضفت إلى وجهة النظر هذه أن دار المسنين رفضت عودته لتأويه بعـــد أن تحملته سنتين أي بعد أن سافر إلى أسوان للمشاركة فـــي

العزاء، يعني أنه – هذا الأب – يصعب معاشرته، وبالتـــالي يصعب إرضاءه، يؤكد ذلك أنه يدفع من ١٥٠ جنيهًا – إلـــى ١٨٠ جنيهًا شهريًا، أي أنه ليس فقيرًا معدومًا، لكن ما حدث منه خلال السنتين في دار المسنين لا يعرفه أحد، نســتنتجه فقط، وخصوصًا أنه هذا الذي يــدفع هــذا المبلــغ فــي دار المسنين – يتوجه إلى ابنه المدرس فــي مدرســته بجلبــاب وقبقاب، مظهر شديد الإيذاء للابن ... المــدرس ... وســط زملائه، هذا الأذى الذي يقصده الأب في تعذيب ابنه عــذابًا لا يتحمله بشر.

كل وقائع هذه الفظائع التي يرتكبها، الأبنـــاء ضـــد الآباء تحتاج إلى مراجعة، إن شروط الآباء فــي المعاشــرة والتآلف مع الأبناء ليس من السهل هضمها، الأمور تتغير من عصر إلى عصر، مفهوم الأبــوة فــي المنــاطق البدويــة أو القروية يجب أن تتطور إلى مفهوم أكثر رحابــة، حتــى تتسع عواطف الأبناء أيضًا كي تصبح دار الأمان للأبنــاء، عدد كبير من أقاربنا وقع في هذا المــأزق الخطيــر، الــذي تحولوا فيه إلى أبناء غليظي القلوب، تتملكهم الأنانية وليست لهم القدرة على إدراك العناء الذي عاناه الآباء في تــربيتهم،

والأبناء. ياعيني – يدورون ويلفون، بين أفواه الناس وعذاب الضمير، وكتابات الجرائد التي لا ترحم، ولا تود أن تعــرف الشق الآخر غير المنظور من الكارثة والذي ترتــوي فيــه السلطة الأبوية بتعليمات الأديان والأنبياء والرسل والحكمــاء والفلاسفة، دون أن تتاح للأبناء فرصة واحدة أن يعلنــوا أن الآباء أيضًا مخلوقات عادية لها أنانيتها ومطالبها، وقــدرتها الفائقة على الخداع والتوريــة وتغطيــة الحقــائق اســتثارة للحقوق، وللمشاعر المغلوطة...

عذرًا، فقد انتهت الموعظة مع أن ما في الجعبة يملأ مجلدًا من أربعة أجزاء مع خمسة ملاحق من التذييل، بعدها يصبح الموضوع ملائما لكل أنواع السلطات الأبوية المهيمنة على مجتمعاتنا العصرية، أو على الأقل: ليصبح الموضــوع مناسبًا لي ... وحدي، بصفتي أرقب هذا التفاعل المــروع، والذي أشاع جوا قاتما حولنا دون أن يواجهه أحد إلا بمفهوم الآباء فقط، وهو أكبر أنواع الظلم التي نحيقها بأولادنــا ... فلذات أكبادنا ... كما لا بد أن نتذكر.

الجهل الجميل ... والأليم القاسي

● ●ظللت في السنوات الأخيرة أبحث عن بلادنا: مصر، وجدتها متناثرة في القصص والقصائد وبحوث التربة وكتب المدارس وأناشيد التلاميذ وخطب الساسة وقادة الرأي ووخزات الرسوم الكاريكاتيرية وظلال لوحات أشجار ضفاف النهر – مع أهمية انعكاس الضوء الجميل على أشرعة المراكب، ثم لم ألبث – فور وصولي إلى مرحلة أخرى من الذكاء العميق – أن تلمست رائحة مصر في قدحة الملوخية وبرام السمن ونبش الغربان ومعامل الكتاكيت ومذابح المعابد والهياكل ونواقيس الكنائس وشموخ مآذن المساجد، بعدها – أي فور انقضاء أحقاب أخرى – استطاع ذكائي العصري أن يتسلق ظهور لجمال ويتسمع دبيب النمل وتناطح الكباش وإيقاع أواني الفخار وفتحات المناجم ومداخل السراديب ولوحات المتاحف ودقات الطبول وشجن أوتار الربابة بحثا عن الحبيب المهجور أو المأمول، وبعد كل هذا الذكاء المتواتر: وجدت نفسي أغوص – أو أبحر – أو أطير في أجواء من الجهل المتألق الناعم كالفردوس أو النعيم.

ذلك أنني – ذات غباء ضاغط شديد الجمال والبهاء – انخرطت في صبيانية مدرسية وراء المواويل ونقوش واجهات بيوت الحجاج (طائرات وبواخر وبعض الخيول وتاريخ أداء الفريضة) ونصوص ندايات الجنائز (كلهن نساء دون رجال) ووشم الكفوف والأذرع والأكتاف ونصوص الأحجبة والتمائم وطقوس قطع الطريق على الضرر الجامح الذي يرتكبه الأعداء والحاقدون فينا نحن الأصفياء الخلصاء الأطهار، بحثا عن مصر العزيزة التي أشمخ بي وبأمجادي، كوسيلة ضرورية كي تشمخ بها وبأمجادها، دون التنازل عن مراقبة أشكال أزياء الجلابيب والقمصان وزركشة فراش المتعة أو المهد المخصص للأنجال حينما يكونون أطفالا، حتى يصلوا – رعاك الله – إلى مرحلة تكوينات فنون الأكفان والسرداقات، في ظل أساتذتي في فنون التراث الشعبي يشعلون في العقل نار المتعة التي تكشف الخلايا الناعمة والدقيقة في بدن الوطن الجميل.

غير أن الأمر – أمري أنا – بدأ يواجه متاعب أو قلاقل أو اضطرابًا يضع الأقواس حول ما اعتقدت أنه الإجابة الكاملة عن السؤال المصري والمصيري الذي يلهث

داخل جمجمتي الضيقة هل كل ذلك هو الإجابة التـــي تشـــبع رغبتي في معرفة الوطن؟ دعك من أن ذلك لا يشغل زملاء عديدين من أصحاب القامة الأدبية – الروائية بالذات، وأن ما يشغلني قد يدخل في مجالات الهوس أو التـــرف أو النـــزق أو التخريف الثقافي، ولاسيما أننا نزهو بأن رأسنا – بما فيها من أمخاخ وأعصاب – لا تزال موجهة إلى الغرب (دعـــك من العولمة الآن) وأن أجمل السهرات نقضيها – أو أجمـــل البحوث نكتبها – تكون عن أوربا وأمريكا: ما تنتجـــه ومـــا يحتشد فيها من نظريات نقدية وجمالية دون أن نتخلى عـــن أمجادنا القديمة والحديثة ومواقـــع انتصـــاراتنا فـــي جميـــع المجالات، ويمكن لك – من بـــاب المعاصـــرة الوطنيـــة – الاهتمام بضرورة أن تتألق السهرة أكثر لو استطعنا أن نريق عددًا من النكت حول الصعايدة تسمح لنا باللهو شديد المرح، نستدرك – آخر السهرة – لكي نعلن في صوت مطمئن (ولا يخلو من السخف) أن الصعايدة هم أحســـن النـــاس وأعظـــم الكائنات أو الجماعات البشرية رجولة وشجاعة ومجدًا وكرما وحفاظًا على الأخلاق والتقاليد – والدم الخفيف أيضًا؟

والأمر المقلق – المشار إليه دون تحديد – هــو مــا واجهته ذات يوم سؤالا لنفسي: هل هذا – كله – هو وطنك؟؟ نعم هو كل ما أريده وبالتالي فقد قضيت حقبة مــن الســعادة بالغة الذكاء – أو ما يبدو أنه ذكاء ذلك أنني ذات ليلة طــرأ في بالي موضوع الغجــر، أي مــا الــذي أعرفــه أنــا – أو أصحابي – عن الغجر؟؟ وبدأت أبحث في مكتبتي، ثم في قوائم إصدارات بعض دور النشر ذات النفوذ الوطني، بعدها لجأت إلى الموسوعة العربية الميسرة (الغجر: شعب متجول تعداده أكثر من مليون نسمة منتشرون – وصحتها منتشرين – في جميع القارات، يحتمل أنهم انحدروا من أصل هنــدي شرقي، يتكلمون لغة هندية إيرانية تدعي رومني، ويتمسكون بعاداتهم وتقاليدهم الخاصة، ويعتمدون فــي معاشــهم علــى التجارة، ويتبعون دين الدولة التي يعيشون فيها، معظمهم من الكاثوليك أو الأرثوذكس لأن مراكزهم المجــر ورومانيــا) وانتهت جهود الموسوعة العربية عند هذا الحــد لأن المــادة التعريفية التالية كانت عن الغدارة: ذلــك الســلاح النــاري الصغير الذي فكرت – عدة مرات – أن أنهي بــه حيــاتي، دون أن أدرك أنني فتحت باب جهنم، وهل هــذا التعريــف

المبتور الناقص يصلح لشرائح الغجر في مصـــر؟؟ هــؤلاء الذين تجد لهم أثرًا واضحًا في جميع أنواع أجــزاء بلادنـــا يسرحون في القرى – قادمين من الصـــحراوات – ليبيعــوا الحمص والحناء وأدوية سفوف البطن والكمــون والشـــيح، ويراقصون القرود ويستعرضون قدراتهم فـــي الوشـــم ودق الزركشة على جلود الأذرع والصدور وذقون الإناث وظلال أنوفهن، وهل الغجر السائمون السائحون حول منطقة الفيـــوم هم أنفسهم – وبـــنفس الصـــفات والمواصـــفات والطقـــوس والقدرات – الذين يتجولون في دروب ونجـــوع وتجمعـــات العدوة أو سمالوط أو إيتاي البارود أو ديروط أو أبـــو تـــيج أو قنا أو الأقصر أو أرمنـــت أو وادي النطـــرون أو نجـــع حمادي أو أسوان؟ وهل يتوقف تجوال الغجر عند ســـاحات ومتاهات الصحراء الغربية فقط أم أن منهم شرائح وجماعات في صحراوات السويس والغردقة وأبو عصـــون؟ أي فـــي الصحراء الشرقية الممتدة من جنوب منطقة الصالحية شمالا حتى حدودنا مع السودان جنوبًا؟؟

وأين أجد معلومات عن كل ذلك وقد خلت رحـــلات اللواء الجوهري وأحمد باشا حسنين مما يفيدني أو يفيـــدك؟

فإذا كانت ثمة دراسات أو كتب عن الغجر في مصر – لم أتطرق كما تري إلى البلاد العربية، سواء في الجامعات أو في دور النشر العام. فأين أجد معلومات دقيقة وضافية عن الشرائح الشعبية المصرية الأخرى مثل الغجر، إنني قرأت – من فترة طويلة – كتابا عن البشارية (وهم يعيشون في جنوب مصر شرقًا) في بحث جامعي لأستاذة لا أذكرها الآن، فهل صدرت كتب أو كتبت بحوث عن الحلب، أو النور، أو الفلايت (الذين في أساس شرائحهم أفلتوا من السجون أو من الاضطهاد أو من دورة الثأر فأقاموا مجتمعات بعيدًا عن أنظار الأعداء) وماذا عن جماعات النوبة وقبائل البدو والعبابدة سواء أكانوا في الصحاري أو في المناطق الزراعية، وماذا عن طقوسهم وعاداتهم وتقاليدهم ومصطلحات لغاتهم ومواويلهم وطرائق معيشتهم؟

وهو ما يؤدي بنا إلى سؤال واضح: لماذا لا يوجد معجم أو أطلس مصري (لم أقل عربي) عن تكوينات السكان والجماعات البشرية المتناثرة أو المتداخلة.

وهي المتباينة والمختلفة بالتأكيد عن عموم المعرفة القائمة عن خلايا بدن الوطن؟؟

وأين يتسنى لنا أن نعرف شيئا عن مصر، على الأقل كي أوقف الإحساس الطاغي بأنني لم أصـــل بعـــد إلـــى أي مرحلة ذات شأن من مراحل المعرفة الحقيقية؟

إنه الجهل، الخاص بي، والخاص بكم أيضًا ...

كل واحد معلق من عرقوبه

● ● والعرقوب نقطة التقاء كاهـل القـدم بكعبـه، وعليك أن تتحمل بعض التحمل – ما قد يحيط بالعرقوب من أمور، فمن الناحية اللغوية: عرقـب الحمـارة – أي قطـع عرقوبها، والتعرقب (أرجو ألا يصيب اللفظ خطأ في الجمـع المطبعي) هو سلوك العراقيب في الجبال: وتعرقب لخصمه: أخذه واحتال عليه في طريق خافية، وتعرقل عن الأمر: عدل عنه ورجع في كلامه، أما تعرقب. في معنى جديد آخـر – فهو يعني أنه ركب الحمارة من الخلف، ثم آخر الأمر فـإن التعرقب يعني إنه يشبه عرقوب في خلـف الوعـد، يقـال مواعيده مواعيد عرقوب.

علينا أن نتزود أكثر من المادة العرقوبية، فالعرقوب من الإنسان: وتر غليظ فوق عقبه يكون نقطة التقاء الكاهـل بالكعب، وفي الحمارة: ما يكون في مؤخرة رجلها، ويقـال: كل ذي أربع عرقوباه في رجليه وركبتاه في يديه، والعرقوب من الوادي: ما انحنى منه والتوى، أو الطريق الضـيق فـي الجبل، ومنه جاءت عراقيل الأمـور يقصـد فـي أسـاس عراقيبها.

لكن الأمر بالنسبة لي – ولك – هو ما تقوله أمهاتنا – في العادة – يكون ذبيحًا – وبطلا ثوريًا، أو شرقيًا أوسطيا، مع أن أخيل – أشهر من تم تعليقهم من عراقيبهم – كان إغريقيًا خالصًا. وتم تخليده في الإلياذة حيث اعتبره هوميروس (واضع الإلياذة) أشجع الإغريق الذين غزوا طروادة، وكانت نقطة ضعف أخينا أخيل في كعبه، وبالتحديد في عرقوبه، الذي انتهى أمره – بسببها إلى تعليقه منها، والسر في ذلك غير معروف، أقصد: كيف يتسنى للواحد أن يكون معلقًا من مثل هذه الجزئية بالذات لا أعرف، حتى لو كان العرقوب ليس في القدم، بالنسبة لشمشون كان في شعر رأسه هذا الذي حلقته له (دليلة) ليصبح بطلا هامد الحركة لا يصلح لأداء أية مهمة، وبالنسبة لخط الصعيد أو أبو هاشم الشهير (الذي من درنكة) كان عرقوبه الإغراق في حب أصدقائه دون حرص، وهو ما حدث أيضًا للنبي المسيح عيسى بن مريم حينما شاف العذاب على يد اليهود بعد أن قادهم إليه أخلص الأصدقاء، وكانت نهاية جمال عبد الناصر مشابهة لذلك حتى لو كان في الأيام التالية لرحيله، ثم إن عرقوب عدد مهول من المعروفين

أو المشهورين كانوا معلقين منه: زعيم الهند غانــدي، ثــم راجيف غاندي، والملك عبد الله – جد الملك حسين، لا أقصد الذين تم اغتيالهم بإطلاق الرصاص، بل والذين تم اغتيــالهم دون إطلاق الرصاص بالمرة، يخضع لذلك عدد من معتقلي قضايا الرأي في العالم الثالث، والــذين يــتم تعلــيقهم فــي المعتقلات من العرقوب نفسه، وموتهم – كما ترى – قضاء وقدر لذلك: كنت – ولازلت شديد الاضطراب كلما ســمعت أمي تنبهني إلى أن كل واحد معلق من عرقوبه، منذ صغري وأمي تهرس النهايات الميلودرامية – بعضــها مضــحك – وتضعها – عرقوب رأسي، ثم تظل – حتى الآن – تصــمم على الإعلان المتوالي الدائم:

كل واحد معلق من عرقوبه، مع إني أصبحت جــدًا مثلها، ولي حقوق الأبناء والآباء والأجداد، في حــين أنهــا لا تحوز كل هذه الحقوق، كما أني عضــو اتحــاد الكتــاب، ونادي القصة، وأجيد القراءة والكتابة، وهو ما لــم يتــوافر لأمي، هذه التي حين هممت بوداعها في طريقي إلى بيتــي، حتى أعلنت في هدوء الأئمة والكهنة ورجال قطاع الأعمال: كل واحد معلق من عرقوبه.

اعتقدت – بسبب محدودية استعمال المخ – أن (كـل واحد معلق من عرقوبه) تسري على عباد الله مـن البشـر فقط، لكني بدأت انتبه إلى أن الجـزار – بالـذات – يعلـق الجديان والخراف من عراقيبها فور ذبحهـا، وربمـا عنـد سلخها، الثيران والبقر والجواميس والجمال لا يحدث لها ذلك لأسباب ترتبط بوزنها، الذي يستوجب تقطيع عراقيبها التـي لا تتواءم مع تعليقها – ثم إن الدواجن – في مذابح الـدواجن – يتم تعليقها من عرقوبها – منتظمة في خط طويـل مـن السلك – أثناء ذبحها، الحمير والبغال والخيول لا تقع تحـت طائلة المعلقين من العرقوب بسبب افتراض موتها دون ذبح، أو لأنها تذبح في موقع لا يراه المستهلكون عادة، إن صـائدا للثعالب في صحراء أسوان – الغرب – كان يقيم الفخ للثعلب بشكل ينتهي عنده الضحية معلقًا من عرقوبه، رأينا ذلك فـي السينما أيضًا في الغابات على وجه التحديد، إن الطريق الذي يسلكه الكائن، أي كائن، ويكون مولعًا بالمرور فيـه، يكـون دائمًا موضع الفخ، إنه يساهم بشكل واضح في تحديد نهايتـه – من العرقوب.

لكن الأمر بدأ يطفو بعيدًا عن مفاهيم أمـــي، وذلـــك أنني- وخلال السعي وراء العرقوب في الكتـــب والمعـــاجم والمذكرات وأقاويل السلف والخلف – فوجئت بما لم يكن في حسباننا جميعًا:

عرقوب: رجل من العمالقة يضرب به المثـــل فـــي خلف الوعد وكما قلت: مواعيده مواعيد عرقـــوب، حينئـــذ، وطفا في ذهني مباشرة المفهوم السياسي لخلـــف المواعيـــد والارتباطات المرتبطة بالسلوك الإســـرائيلي، وكـــان ذلـــك مفهومًا ساذجًا وتصورًا أبله، إن عرقوب الذي من العمالقـــة يحتاج إلى إمعان جديد، مع عـــدم اســـتبعاد إســـرائيل عـــن العرقوبية بالمرة.

فالعمالقة – الذين مـــنهم عرقـــوب- قـــدماء البـــدو الشماليين – مما يلي شبه جزيرة سيناء (الميســـرة) فتحـــوا مصر باسم الشاسو (البدو أو الرعـــاة) ويســـميهم اليونـــان (هكسوس)، وأصل لفظ العمالقة مجهول، والغالب أنه منحوت من اسم قبيلة كانت تقيم جهة مدينة العقبة – وربما شـــمالها، وكان البابليون يطلقون عليهم اسم ماليق أو مألوق، ثم أضيف إلى اللفظ ما يعني الشعب فأصبحت عمـــاليق – أي شـــعب

ماليق، وهو ما نطق به العرب عندما كان العرب ينطقــون، وعلم الأنثولوجيا الإسرائيلي يضــعهم فــي دائــرة العــداء للإسرائيليين – على أساس أنهم – الهكسوس. أو الرعــاة أو العمالقة – نهبوا جماعات اليهود المتناثرة بين العرب في تلك البقاع، وذلك خلال هروبهم من مصر مدحورين على يد الملك أحمس الأول – القائد المصري الشجاع.

ولأن مواجهة مسألة الكيان الإسرائيلي – لوحــده – منفصلا عن الآخرين الذين يغلقون الطرق على كل محاولــة للإمساك بهذا الكيان من عرقوبه، يصبح لازما أن نبحث من جديد – لعل المعنى القديم يرتــدي الثــوب العصــري فــي الكوارث الراهنة، تلك التي يحدثها فينــا هــؤلاء العمــاليق، أو العمالقة، الذين منهم عرقوب صاحب المواعيد المختلــة، والذي لا يهمه أن تظل مواعيده مختلة، هو والذين صــنعوه، فالعماليق كثيرون.

وبالتأكيد فإن مفرد العمالقة أو العمــاليق: عمــلاق، ويعني بالعملاق – طبيًا وتشريحيًا – الكائن السريع النمــو، وفي الإنسان هو ذلك الذي يبلغ طوله مترين ونصف المتر، وكان أطول عملاق أمريكيًــا ورد فــي موســوعة جينــز

(٢٨١,٩ سم) – أي أقل من ثلاثة أمتار بشبر واحد، ومثل هذا يكون عرقوبه واضحًا يسهل الوصـــول إليـــه، مـــع أن الزيادة غير الطبيعية في النمو لا تصيب الهيكـــل العظمـــي فقط، إنها تنتشر في جميع أجهزة الجسم وأنسجته الرخـــوة، وينشأ النمو العملاقي من الزيادة في إفراز هرمـــون النمـــو بواسطة الفص الأمامي للغدة النخامية، وتحدث هذه الزيـــادة والشخص في طور النمو، وقبل التحام أطراف العظام، لكنها – إن تستمر في النمو وزيادة الإفراز بعد التحام العظـــام – فإن الشخص يصاب بمرض كبر وطول الأطراف، وتنمـــو أجزاء من الهيكل العظمي دون غيرها، مما يعرض الكـــائن لعدم الاتساق، فتتضخم عظام الوجه – وخاصة الفك العلوي والفك السفلي، وينحني العمود الفقري – ويضطر – العملاق – أن يجد موقعًا مناسبًا لتناول طعامه دون أن يســـخر منـــه أحد، وأن يلعب دون أن يقع في دائرة المهاترة، فلما يفشـــل العملاق في ذلك تراه لا يهتم بما يقوله الآخرون. ولا يراعي مصالح الآخرين، وتراه – حين ذاك – سخيفاً منحطًا ســـافل السلوك – يبحث عن الصغائر ليضعها في دائـــرة الكبـــائر، لا يكفيه منزله أو بيته فيظل يسعى كي يلهو أو يعبـــث فـــي

منازل الآخرين – يصنع المطـارات والممـرات لطائراتـه خارج مطارات وممرات أصحاب الموقع، ويحرك بوارجـه المدرعة المسلحة الذرية والأيدروجينية كي تختال في البحار والمحيطات، يستولي على الوقود مقابل طبع أكبر عدد مـن صناديق الورق النقدي الذي يحمل اسمه – يوميًا – ثم ينهك أعصاب الآخرين بالتنديد والإنذارات دون مراعاة لمشـاعر الخلق، يبحث عن التنظيمات – التي ترعى العدل – وتحاول أن تبدو عادلة – فيضعها في جيبه، هو عملاق – نعم، هـو عرقوب أيضًا، وله عرقوب سوف تكون فيه نهايتـه، إنهـا العملقة ذاتها، عرقوبه الأصيل، فمرض النمو العملاقي يكون مصحوبًا بأعراض الاضطراب في كل أجهزته التي أنهكهـا التضخم. الطيران والبحريـة وحـرب النجـوم والأقمـار الصناعية والأجهزة التعويضـية فـي التناسـل والتواصـل والكذب والمواعيد والخداع.

وقد حدث ذلك لعمالقة سابقين بشكل واضح محـدد، ولأسـباب انهيـار واضـطراب العمـالق: الإمبراطوريـة الفرعونية التي جمعت أحشاءها مـن بـين سـهول بابـل وصحراوات الشام، إمبراطورية بابل التي احتـرق جلـدها

طول نهري الفرات ودجلة، إمبراطورية فارس المشدودة بحكمة زرادشت وهي – في آخر الأمر – تبحث عن موطن ميلادها عله يأويها من العواصف، والإمبراطورية الرومانية وهي – آخر الأمر – تبحث عن رداء يحمي أثداءها المترجرجة من أذى فرسان المسلمين، ثم الإمبراطوريات المتآكلة لأسباب نمو العماليق نفسها الإمبراطوريات الأوروبية الوسيطة التي أنجبت عصور الاستعمار المتضخم المتحكم في كل القارات، لتقع الإمبراطورية الفرنسية في آخر مأزقها: الأفريقية منسحبة لتبحث عن أمجاد الاستعمار القديم على ساحة الحرية والمساواة والإخاء، توازيها الإمبراطورية البريطانية – التي كانت أوامر حكامها تترجم إلى ثمان وعشرين لغة لأقوام تقع تحت حوافرها، فإذا بها تخرج – آخر الأمر – من حرب السويس تحاول أن تلملم قميصها الممزق كي يستر البدن الضخم الذي تعود على افتراش الأمم.

آخر العمالقة أيها السادة هو العرقوب القائم الآن، والذي جاء – أخيرًا – بعد نموه غير الطبيعي – كي يهيمن على إرثه من أسلافه العماليق، الولايات المتحدة الأمريكية،

العرقوب المعاصر المتحلل من كل مواعيد، والذي في حاجة إلى مقادير كبيرة من مواد الطعام اللازمة لاستمرار أنسجته في النمو – ليظل قادرًا على الحياة، كميات رهيبة من الطعام يغذي بها جهازه العصبي والتنفسي والإعلامـــي، ويصـــلح لتحريك السفن والطائرات والبوارج والصواريخ والغواصات والجرائد والمجلات والأقمار الصناعية ومحطات الإرســـال، هذا العملاق، ذو العرقوب – تناول وجباته الدسمة – من قبل – في ألمانيا – ثم في اليابان، ثم في أمريكا الجنوبيـــة، ثـــم هاهو بعد أن وصلت مناسيب تضخمه إلى أقصى الحـــالات، جاء ليبحث عن غذائـــه فـــي أراضـــينا دون اهتمـــام بنـــا وبمشاعرنا، ويكفيه ما يكتبه ويرسله وما يفعله تنفيذا لرغبات إسرائيل، بصفتها واحدة من الغدد التي تغذي الجسد الأمريكي العملاق، ودون أن يهتم هذا المتضخم العرقوبي بما ورد في التاريخ من نهايات حتمية أصابت كل العماليق، تلـــك التـــي سوف تدفعه إلى أن يبحث له عن قمـــيص ضـــخم يغطـــي ما لا يصح ظهوره من تضاريس جسده الضخم، حينما تحل عليه النهايات، حيث يبحث الآن علم التاريخ عـــن عرقوبـــه تمهيدًا لأن يتم تعليقه منه – مهما كان جسده متضخمًا.

وكل واحد معلق من عرقوبه، وكانت أمي لحظتهـــا تنظر إلى شاشة التليفزيون التي يجثم فيها الجسد الأمريكـــي على كل الأخبار.

الفرج أيوب المصري الصابر... ورحمة هي المفتاح

١ – أفيقي

أفيقي. لست أول من ينام على الطريق، وأدهشني مدخل القصيدة فقررت أن أبارز الشعراء بها، كنت قد وقعت في حالة الإلهام حينما رأيت امرأة بائسة تكورت حول نفسها في ظل حائط قديم، أمعنت المرأة في وجهي ودفعت بابتسامتها المتعثرة كي تعلن عن سرور ضعيف اجتاحها – كان واضحًا أن عيونها – في سرور – تتابع حركة يدي، تلك التي لابد قد اخترقت جيب جلبابي كي أخرج – في سرور – ما أتصدق به عليها، لكن المرأة – حين رفعت عيونها عن يدي الخارجة توًا من الجلباب: ابتلعت سرورها – ذلك أنني – وبسرعة تساوي سرعة الإلهام – أخرجت من جيبي علبة السجائر، ثم اندفعت أصابعي إلى جيب الصديري بحثًا عن قلم أدون به هذا المدخل المذهل للقصيدة: أفيقي ... لست أول من ينام على الطريق ... كانت خطواتي قد تعثرت أو اضطربت متوازية مع تعثر أو اضطراب اليد الباحثة عن القلم، إن كثيرا من القصائد – والقصص أيضًا – ضاعت وتبخرت لأن اصطيادنا لحظة الإلهام لم يكن موفقًا، كان

الوقت وقت الشعر وليس وقت الصدقة، عرجت جانبًا وبدأت ألوك المدخل الشعري من جديد: أفيقي ... لست أول من ينام على الطريق، فالليل مسحوق ... وتوقفت عند "مسحوق" دون أن أنجح في العثور على القلم، مع إني أراعي مسألة أن أحمل القلم كلما ارتديت ملابسي تمهيدًا للخروج، بالعكس فإنني أيضًا أراعي دائمًا – أن يكون القلم قريبًا مني في المجالس والمشارب والمطاعم، في حركتي المنزلية، بجوار التليفزيون وبين شرائط الموسيقى وتحت وسادة النوم (الصحيح: على المائدة الصغيرة بجوار السرير)، كما أن القلم، والورق، عناصر أساسية في حقيبة السفر، أفيقي، لست أول من ينام على الطريق، وما العمل الآن لقد ضاع نصف البيت الذي تلى ذلك، والعيون المتوسلة للمرأة أصبحت عيونًا عاتبة، ثم عيونًا غاضبة، ثم – وأنا أبتعد أكثر لأعود فأنظر خلفي – عيونًا لاعنة واضحة الرفض لسلوكي غير المريح، وغير الإنساني أيضًا.

وصلت إلى البيت وقد سكنني إحساس بالذنب، وخلال اختراقي للشوارع ظلت المرأة التي ليست أول من ينام على الطريق ماثلة في أعصابي، قروش قليلة كانت كفيلة

بتحويل مثل هذه العيون العاتبة الغاضبة إلى عيون راضـــية، وهذه القروش بالتأكيد لا تؤثر في مجريات الأمور الثقافيـــة التي ترعاها بقلمك، وقلت لنفسي: معروف عنك الإســـراف في المأكل والمشرب وجلسات اللهو والمرح، مـــع إضـــافة الإفراط في مكافأة خدم المأكل والمشرب والمرح، لا يعلـــو عليك في ذلك سوى حاتم الطائي والدكتور شاكر عبد الحميد عد – الكلام لنفسي – عد يا ابن الناس وعللـــج – الجـــرح وامنح المرأة ما يعيد صياغة نظرتها، ربما لو فعلت ذلـــك – ارتاحت الأمور وعادت القصيدة للتألق والاستمرار، فالمدخل جميل، ومؤثر: أفيقي ... لست أول من ينام على الطريـــق، كما أن مجرد المدخل – يعطي إيحاءات بمعان أخرى تخرج عن المعنى المدرسي: لست أول من ينام على الطريـــق ... أفيقي، قد يصل تعدد المعاني إلى إشارات للأمـــة العربيـــة، حينذاك اضطربت اضطرابًا شديدًا، فأنا شديد الحرص فـــي كتاباتي ألا استشرف المعاني التي تمس الأمة العربية، ذلـــك أن رؤساء التحرير، مع وكلائهم المسئولين عن الأبواب التي تهتم بكتاباتي وقصائدي، يحبون ما يكون حارقًا وله مســـاس بهذه الأمة المضطربة، بشـــرط واحـــد: أن يقـــرءوا ذلـــك،

ويتبادلوه في الجلسات، دون نشره، مالي أنا والأمة العربيــة وقضيتي في أساسها مجرد إحساس إنساني بـــامرأة غلبانـــة أهمس لها: أفيقي ... لست أول من ينام على الطريق؟

من فرط ما داهمني اشتريت عدة أقلام، ونوته تصلح للحفظ في جيوب الجلباب، كتبــت مــدخل القصــيدة الــذي أذهلني، وحاولت استعادة أي بيــت دون جــدوى، فقــررت التحامل على نفسي وأن أعود كي أدفع للمرأة الغلبانة الملهمة التعويض المناسب لإثارة حمى القصيدة مرة أخــرى، كـــان الجو هادئًا والدنيا صامتة وبعض النوافذ تأرجحت مفتوحـــة من أثر نسيم قديم (الريح أفضل – النسيم يحــرك الملابــس دون مصاريع النوافــذ) وظلــت الشــمس ترقبنـــي دون أن تضايقني، ثم الشارع الأخير وأنا أهمس: أفيقي ... لست أول من ينام على الطريق؟ وبدأت أمزق في بيت الشعر لأحيلــه إلى تفعيلات تصلح لجذب البيت التالي من عمق الإلهـــام – وبالفعل – وعلى وقع خطواتي – بدأت شباك الاصـــطياد – تسحب من التفعيلة بوادر البيت التالي: فالليل مسحوق، تناثر في الأفق الرشيق، أحسست بعدم الارتياح للأفق الرشيق الذي يتناثر عليه مسحوق الليل، على أية حال: القصيدة الحداثيـــة

تسمح بذلك، أفيقي، ربما انتهت المسائل في الشروق، يعني إيه انتهت المسائل في الشروق؟ القصيدة على بعضها تكون – في التحامها – ذات تأثير مخالف لتأثير التمزيق: أفيقي، لست أول من ينام على الطريق، فالليل مسحوق تناثر في الأفق الرشيق، وضعت خطا تحت (الرشيق) كي أعود فأعيد النظر فيها، وكانت أوراق النوتة قد تخاذلت تحت سطوة القلم، وإيقاعات خطواتي امتزجت بالتفعيلة الشعرية، واندفع الإلهام – وأنا أقف على الناصية – يرعش الجسد: إن كنت أنت الحائط الأبدي، أو الحزن المعربد في الشقوق فإنني – سيدتي – لست مثلك: لست آخر من ينام على الطريق ... هاهي القصيدة تخرج عن الحالة التي يحبها رؤساء التحرير دون نشرها، ولم يعد للأمة العربية أثر في معانيها أو إيحاءاتها، وتصبح القصيدة – بهذا المعيار – منافسة لشعر مدرسة نزار قباني التي تحتفظ بها تلميذات المدارس بين كراساتهن، وهو ما يعشق رؤساء التحرير نشره دون إحساس بالحرج.

لكن الأمر لم يكتمل، إذ أني – وخلال دبيب إيقاع الشعر في خطواتي وعلى لساني وفي قلمي وداخل أوراقي –

فوجئت بالمرأة المسكينة اللائذة بالحائط تمعن في وجهي متوجسة، ثم تقف – فجأة – بشكل واضح الاستعداد لمواجهتي، وبينما كنت قد اضطربت بين القلم والورق وجيب الجلباب، ويدي التي تحاول التخلص من كل ذلك – بنظام كي تلتقط القطعة النقدية المناسبة فأمنحها للمرأة، بينما أنا كذلك، صرخت المرأة في وجهي لتتبهني أنا ليست هي المرأة التي ألف وأدور حولها، وأنها سوف تظل متسولة طول عمرها دون أن تكون كما أريد (الصياغة الأخيرة مهذبة جدا لأنها أوردت ألفاظًا أخرى لا يطيق رؤساء التحرير سماعها: معظمها لحيوانات أقلها شأنا الكلب أو الحمار).

حينئذ، أصبح مناسبًا أن يخرج أفراد من الشوارع الجانبية، وأن يفهموا الموضوع كما تريده المرأة تمامًا، وظلت القصيدة في النوتة تثابر كي تخرج للدفاع عني، وعن موقفي، وأن الموضوع لم يكن كما تصورته المرأة بالمرة، أعوذ بالله. واندفعت مضطرب الخطوات ألملم نفسي بشعرها ونقودها هناك في شارع جانبي بعيدًا عما أثارته هذه المرأة، أعوذ بالله مرة أخرى، أفيقي، لست أول من ينام على

الطريق، وبدأت أهدأ، وأفكر، وأعيد التوصل للإلهـــام كـــي أكتب القصيدة تحت أي وقع، وداخل أي معنى، دون أن أهتم كثيرًا بما قد يربط بينها وبين تفعيلات الأمة العربيـــة، أو أي فرد فيها، هل هي رحمة زوجة أيوب المصري؟؟

٢- الصبر والمفتاح

وأشهر الصابرين كان أيوب، أحد أنبياء بني إسرائيل، ورد اسمه في القرآن الكريم أربع مرات وجاءت قصته مرتين (في سورة الأنبياء – وفي صورة ص)، كما اعتلى اسمه واحدًا من كتب العهد القديم، وتدور اختبارات صبر أيوب في أن الله امتحنه في ماله، وأهله، وبدنه، فصبر إلى أن وهبه الله العافية والمال والولد. ويذهب البعض أن ذلك حدث لأيوب تكفيرًا عن إثم ارتكبه، إثم فظيع وخطير. لا يمكن لأحد أن يستوعب حدوثه. أما أيوب – نفسه – فهو يؤكد أنه بريء وأن حكمة الله فوق إدراك كل إنسان، ويحمد الله على تعويضه عن هذا النوع من البلايا بالشفاء في آخر عمره.

بحثت في مكتبتي – عن أيوب المصري – الحكاية الشعبية دون جدوى، هذا الذي حدث له ما حدث للنبي أيوب، وقد حملته زوجته الأمينة الصابرة المخلصة فوق كتفيها، ودارت به في القرى والنجوع والكفور بحثًا عن علاج لمداواة هذه الكارثة المرعبة المؤلمة، كان جلده – كل جلده –

قد التهب محدثًا وجعًا ليس من قدرة البشر تحمله، ثم بــدأت أوجاع الجلد الملتهب تدفع بالجلد إلى التساقط، مرض منتشر في بلادنا المصرية: التهاب الجلد، لكن أن تلتهب كل مساحة الجلد وتبدأ في التساقط الأليم، بما يعنيه ذلــك مــن تشــويه مروع، فهذا هو النادر، وأعتقد أن مثل هذا المرض – فــي أقسى حالاته –نوع من "البلاجرا" الناجمة عن نقص فيتــامين (ب) المركب، وبالذات الذي تفتقد إليه حبوب الذرة الرفيعة، أو النيلية، أو الصيفية، هي الذرة التي كانت منتشرة في كــل ربوع الفلاحين على طول بلادنا، وقد تقلصــت زراعاتهــا، فترة، ثم عات من جديد لتنتشر – في العشرين عامًا الأخيرة، بعد أن أصبحت غذاء أساسيًا لمــزارع الــدواجن والأبقــار والجواميس.

أيوب المصري – وليس لي دخل في أيــوب النبــي الإسرائيلي – كان يعيش على المواويل والحكايات عند الناس في بلادنا، ينافس بدر البدور، والخششبان، وحسن ونعيمــة، وأدهم الشرقاوي، وقد أعاد صياغته الشعبية الفنــان الكبيــر زكريا الحجاوي لتشدو به خضرة محمد خضــر – الفنانــة الشعبية، التي لا يزال يطل صوتها علينــا – بعــد الحــين

والحين– من الإذاعة أو التليفزيون، ولم أكن مشغولا بعلاقة أيوب المصري بأي أيوب آخر، ذلك أنني في السنوات الأخيرة فوجئت بواحد من معارفنا الأثرياء أي الذين لم يذوقوا الأذرة الصيفية في حياتهم – يموت بمرض أيوب، وبدأت الأقواس تلتف حول نبات الذرة الصيفية (أو الأذرة – واللفظان صحيحان) لتستبعد أن تكون هي السبب الأصلي الوحيد لمرض تقيح الجلد.

بعد ذلك أحسست بأن أيوب مصري خالص، حتى لو تشابه مرضه – البلاجرا – مع الأسقربوط: وهو من أمراض سوء تغذية خلايا الجسد، فتضعف جدران الشعيرات الدموية ويسهل حدوث نزيف دموي منها، كما تضعف – بعد ذلك خلايا الأسنان والعظام، فيختل تكوينهما ونموهما، لماذا لم يكن ما أصاب أيوب المصري مرض الأسقربوط؟ لأن هذا المرض هو الآفة المهلكة للبحارة في رحلاتهم الطويلة فوق ظهور السفن، البلاجرا هي ما يليق بنا.

ولكن الأسطورة الشعبية ظلت تحتوي على قدر مذهل من إمكانات اختراق عصور ما قبل التوراة والإنجيل وباقي الكتب المقدسة، والتي أشار إليها القرآن الكريم في

جلال معروف عنه إزاء الأنبياء الأمر – في أيوب الخـــاص بنا – أي المصري الخالص – الشعبي، إنه ليس من الأنبياء أو الرسل، وليست له القداسة، بل إنه من مصر، وإنه لمــن المصريين حتى لو كان يعزو ما به وما أصابه إلـــى مكيـــدة الشيطان، والذي سمحت السماء له– للشيطان – أن يتجــول في الأرض لكي يضايق أيوب المصري، ويجلب لـــه كـــل أسباب التعاسة والحزن.

وفي الأحقاب الأخيرة بدأت أنتبه لأيوب المصـــري هذا، فأيقنت أنه اخترق أيضًا الوجود كله، بآلامـــه المبرحـــة المؤلمة الناجمة من التهاب حواسه ظاهرة في الجلـــد فقـــط، حيث أفاجأ به – بين الحين والحين – مضروبًا بالحذاء أمـــام أسرته من شرطي غبي، أو مسحوبًا من قفاه إلى قسم شرطة دون أن يعرف السبب (الذي قد يتحول بسرعة إلى الاشـــتباه أو الاعتداء على قوة الشرطة ذاتها)، بل وحينما يصبح أيوب المصري – ذاته – شرطيًا – فسوف يجد راقصة تقطع عليه طريق المرور وتسبه وتهينه حتى لـــو كـــان ضـــابطًا، ثـــم تستدعي بـــالمحمول – أو التليفـــون المحمـــول – زوجهـــا أو صديقها أو الذي يسكن في الفيللا المقابلة ليتضح للشرطي

المهان أن القادم رتبة ذات شأن من الشرطة أيضًا، إن أيوب المصري وهو ينسحق انسحاقًا في الأتوبيسات والقطارات وسيارات السرفيس ليزداد جلده تقيحًا. وهو الذي تطارده أغاني الهجس والضجيج وميكروفونات التوسل والدعاء المفتعل قبل آذان الفجر بساعتين، وهو الذي تحاصره نواتج الاحتكاكات من الحكومات العربية ليقضي الأيام والليالي مرعوبًا دون حماية في المطارات والمرافئ يبحث عن الطريق للعودة إلى وطنه – بأية طريقة (!!!) وأيوب المصري هو هذا الذي تحمله زوجته بين الأصقاع بحثًا عن علاج الخبراء لما هو فيه: حيث أشاعوا أنه لا يجيد الإدارة أو التسويق أو الإدراك الدولي وبالتالي فإن بيع مؤسساته سوف يوقف التهابات الجلد المتقيح، كل ما يملك من مصانع قماش وسكك حديدية وقناة السويس وطيران ومحطات كهرباء وخطوط مياه ومعامل سكر وروائح عطرية وخمور وسلخانات، ومدارس وجامعات وتجميع السيارات والثلاجات والبوتاجازات، كما أن أيوب المصري سيكون علاج جلده مؤكدًا فور تخلصه من مؤسسات صناعة الأحذية والجلود والحقائب، ومن الملاحظ أن التجارب الأولية في علاج أيوب

المصري نجحت نجاحًا ساحقًا ماحقًا: فقد بدأ يبعد عن زراعة القطن (محصوله الأثير)، أما محاصيل حبوب الحقول فقد اكتفى بما لا يحقق الناتج الأعلى تمهيدًا لأن يتخلص من كل المزروعات ذات الجهد المرهق، فاتسعت زراعات البرسيم والنخيل والجزر الأصفر، ولذا فإن عددًا كبيرًا من أولاد أيوب المصري بدأ يتوسع في زراعة البانجو والحشيش والخشخاش، وظهرت في بيوت أيوب المتعددة معامله الخاصة لاستحضار الماكستون فورت وبودرة الكوكايين وأنواع أخرى ثمينة ومشعة من البودرة، كما أن عددًا لا بأس به من أصحاب هذا النشاط نجحوا في الوصول إلى المؤسسات الدستورية أعضاء في مجلس الشعب والرقابة والمراجعة، وهو ما أدى إلى ظهور رغبة شعبية عارمة أن يصبح مخ أيوب مدممًا ومتقيحًا مثل جلده، حينئذ ظهرت العلاجات السريعة التي تقطع أنابيب التوصيل أو صفحات الكتابة، إن فكرة الله أعلى من أن يتناولها مفكر، كما أن حياة الأنبياء يجب ألا يتم النظر إليها إلا من خلال وجهة نظر الذين قاموا بتقطيع الأنابيب وتحريم الأفكار المكتوبة، أيوب المصري – أول من اختارته الآلهة أرضًا وموضوعًا لجلال

الله وعظمته ورسالته يجب أن ينتبه لما يلتـف حولـه فـي العصور الحديثة، كل الفحش والعهر متروك لأفلام الفيـديو: حيث متعة المشاهدة (الممارسة أفضل) فـي كـل القصـور المهيمنة في المنطقة، لا أحد قام بتحريم أفلام الفيـديو، مـع تحريم كل فكر واسع رحب يجادل ويناقش (مع أهمية التنبيه ألا يقتضي أحدهم هذه الفكرة ليكتبها فـي روايـة معتلـة وسقيمة) وهاهو جلد أيوب المصري بدأ يتماثل للشفاء، فبعـد أن تساقط ملتهبًا متعفناً من آثار بلاجرا الأوضاع الخاطئـة، وبعد أن عرف الطريق إلى الصبر وتحمل البلاء، بدأ يشـكو من أنه في الحقيقة – يبحث عن المفتاح، مفتاح أيه يا راجـل أنت؟؟ نعم: مفتاح الفرج. وبدأ التاريخ يعيد صياغة ما يحدث لأيوب في ضوء المستجدات أو العولمة أو الجات، باعتبـار أن الصبر مفتاح الفرج.

وهو ما سنظل نفخر بالبحث عنه، مع تحياتنـا إلـى دورة جديدة للسيدة حرم أيوب المصري، ألـم تلحـظ أنهـا ازدادت قوة وقدرة على حمله فوق كتفها لتصـنع أسـطورة جديدة؟ حيث تبدأ أبياتها الشعرية بهذا المقطع الرائع: أفيقي:

لست أول من ينام على الطريــق!! مــع أهميــة أن يكــون الشيطان وراء المسألة كلها؟؟

المجد لبحر يوسف

وعلى الذاكرة ... السلام

●● فور مواجهتي لبحر يوسف: أحسن بأنني اخترق عالمي الخاص، الشمس شمسي والقمر قمري وكل المياه تصب في القلب، يتعرج بحر يوسف خارجًا من جوف قناطر ديروط دون اهتمام بمراعاة الاستقامة التي تراعيها الترع الأخرى – المصنوعة، تحاصره الأسطورة التي أشرت إليها من قبل: حينما فسر سيدنا يوسف حلم عزيز مصر الخاص بالبقرات العجاف والسنابل الناشفة التي تداهم البقرات السمان والسنابل الخضر اليانعة، فتم الإفراج عن سيدنا يوسف (المسجون في قضية اتهامه الظالم بمراودة زوجة العزيز زليخة، الذي رأى أن مصر في حاجة إلى مشروع سنوات سبع منتجة لمواجهة سنوات سبع عجاف بائسة، وبناء على ذلك ركب سيدنا يوسف حصانه وظل هائمًا في البراري المصرية تفتيشًا عن الحل، لكن النعاس غلب سيدنا يوسف خلال تجواله فاسترخت عكازته ووصل سن ارتكازها إلى الأرض، مما صنع أثرًا من خط محفور في التربة يسير – متعرجًا – خلف العكازة المعلقة في

الحصان، هذا الخط الذي اندفعت فيه المياه ليصبح المجرى الذي يخرج من ديروط ويصل إلى بحيرة قارون بالفيوم.

الأجيال الجديدة في منطقة ديروط لا تعرف ذلك، ربما لأنها لا تهتم أصلا بالفولكلور وما قد يكون ممتصًا داخل خلايانا من خرافات وغيبيات، وحينما أقترب من هذا المجرى الأسطوري، في مبدئه عند ديروط، أو في منتهاه عند الفيوم، تبدأ الحكايات الجديدة والقديمة تتفاعل وتنشط وتطالب بحقها في السطوة على مجرى أموري كما هي مسيطرة على مجرى بحر يوسف من زمن قديم.

هذه المرة حاولت أن أكتم سراديب تفريخ الحكايات، أي أن أذهب إلى المنبت خاوي الوفاض، وأن أقضي إجازة – هناك – خالي الوفاض أيضًا، صحبت الأسرة كلها، وتركتهم – كما تعودت – يزورون الأقارب، يقضون الساعات أو اليوم كله بنهاره وليله في دائرة المجاملات الطيبة، يصنعون ضجيج الانبهار القروي ويبالغون في الاحتفاء المبالغ فيه لكل ما يأكلونه أو يشربونه هناك، كنت قادمًا من القاهرة بعد أن مللت القاهرة في الأسابيع الأخيرة،

وحاول أصدقائي في القرية إقامة مشهد ازدراء واحتقار لهذا الذي سرق ديكي: زهر الفول وصنع منها رواية، ثـــم قـــام بمحاولات صبيانية غير مهذبة كي يرجمني لكنني أغلقت هذا الباب لكي لا يصبح موضوعًا لمجاملتي، ثم كي لا يصـــبح موضوعًا أستحضر له في ذاكرتي كاتبًا نادرًا مـــا تذكرتـــه عدوًا أو صديقًا، ولا يصح – من باب القانون الطبيعي – أن أحمله ما يقرب من مسافة ٤٠٠ كيلو متر في جوانحي حبًـــا أو كراهية، ولمدة تصل إلى عشرة أيام لا دقيقة له فيها، حتى حين قرأت رسالته المنشورة في الجريدة الأدبية – في بـــاب رسائل القراء – يتهمني فيها بـــأنني وراء أمـــراض وبلايـــا الحياة الأدبية، وما يعنيه ذلك من أنه يفهم ويـــدرك ويحلـــل، حين قرأت ذلك، وكان غيري قـــد قـــرأه قبلـــي، اســـتبعدت الموضوع كله – برمته (والرمة هنا تـــتلامس مـــع الجثـــث المتعفنة) حتى لا أجيب عن السؤال المرهق: من هـــو هـــذا الكاتب؟؟ نعم: لقد جعلت عددًا كبيرًا من القـــراء والمهتمـــين بالأدب يعرف شيئًا عن هذا الكاتب الذي قام بهـــذا التـــدليس والاقتناص لكني غير مستعد للتعريف من جديد بالكاتب نفسه

الذي فشلت كتبه التي تجاوزت العشرة بتعريف الناس به، زليخا زوجة عزيز مصر أفضل.

افتراس الفؤاد

ظهيرة الثالث – أو الرابع – كنت أتجول على شاطئ بحر يوسف من الناحية الشرقية، نادرًا ما يأتي شهر فبراير – الذي يوازي أواخر شهر طوبة القبطي – بهذا الدفء، بل إن أشعة الشمس تكتنفها حرارة غير عادية لهذا النوع من الأيام، وبدأت القاهرة تنزاح من الوجدان ساحبة ثقافتها ووزارة ثقافتها إلى الخلف، حتى معرض الكتاب تراجع بكل ضجيجه، وهاهي جريدة "الدستور" قد نشرت أهم عشر روايات في تاريخ مصر، ففاز من العشرة ستة يرأسون تحرير المناصب والدوريات الأدبية، ولو كانوا بعيدا لاكتنف الأمر تغيير مؤكد، إنني أعرف – جيدًا – أنهم خير الكتاب، إني لا أطعن فيهم، بل في البوصلة المؤثرة في ذاكرة غالبية الذين تم استفتاؤهم، قل لي: كيف يمكن استبعاد (فساد الأمكنة) لصبري موسى، التي حازت على ترشيحات قليلة منهم؟؟ ولماذا سقطت من الترشيحات (يوميات نائب في الأرياف) لتوفيق الحكيم – حتى ولو كانت للمؤلف نفسه

رواية أخرى صعدت بها قدرات التذكر السريع حين نضع الحكيم والشرقاوي ونجيب محفوظ ويوسف إدريس كقاعدة تاريخية تبدأ بها سلسلة أهم الروايات دائمًا، دون إمعان في العمل نفسه؟؟

دعك من كل ذلك وانظر من بعيد إلى القرى في تكويناتها التلقائية التي تحمل آثار التفكير الجمعي الراسخ: مآذن المساجد، وقباب الأولياء – أو سرايات الأعيان، من الناحية الغربية لبحر يوسف، تقع القرى مباشرة على المجرى، كلها (عزب) أو ضياع – جمع ضيعة، أما في الشرق – حيث أتجول – فإن القرى تقع بعيدًا جدًا عن الشاطئ الذي يظل محتفظًا بكثير من تفاصيل قيامه من أشجار ونخيل.

الوقت ظل جميلا، وأسراب العيال على الشاطئ المواجه لا تزال متألقة بألوان الملابس الزاهية – من أثر احتفالات عيد رمضان، والبعد عن تجمعات القرى، ويتيح لك البعد عن صراخ الميكروفونات والمسجلات والتليفزيون والقطارات والسيارات في الوقت نفسه، والتكوينات البرية غير المشذبة تثير الخيال، كيف استطاعت العاصمة أن تدمر

أفئدتنا وعواطفنا لحساب الضغوط النفسية المروعة التي تواكب التعامل مع كل هذه المؤسسات في البيت والمكتب والإتيليه والمقهى والمعرض والمتحف وسواقي الأجرة واندفاع عادم التلوث – مع كل هيصة الضجيج الخانق؟؟ متى يمكن لقرانا أن تألف رؤية أبنائها يسيرون عشا مع حبيباتهم على شواطئ هذا النهر؟؟ لماذا نقبل ذلك في الإذاعة والتليفزيون والإعلانات والكتابة دون الحقيقة، لقد فشلنا أن نصنع قصص حبنا وغرامنا خارج الجدران الثقيلة الكابية المظلمة، فهل سيفشل كذلك أولادنا؟؟ في القاهرة أحب ابني الأكبر زميلته ثم تزوج بها، هو – أصلا – من ديروط الشريف، وهي – أصلا – من شلش، والقريتان تقعان متقاربتين في مركز ديروط، نظرت خلفي كي أرى (شلش)، وهاهي ديروط الشريف، ومع ذلك غير مسموح لهما بأن يتجولا – مجرد التجول – هنا، لابد أن يظل العشق مدفونًا في أعماق البيوت حيث يتمكن من إنتاج أكبر كمية من الرذائل، وهاهو الشاطئ يتعرج لهذا البحر اليوسفي الجميل والنوارس، وأبو قردان والعصافير واليمام وأبو فصادة، والغربان أيضًا – تقترب وتبتعد وتثير الجلبة الصغيرة

المتألقة في الجو البريء الخاوي الخالي من الشــرر، أيــن أصدقاء القاهرة الآن ؟؟ السؤال مرة أخرى: أيــن أصــدقاء القرية الآن؟؟ المشغول في شراء الأرض الناجم عن إخــلاء مستأجريها، والجالس في البيت الجديد يستمتع بالطقم المذهب والولد الناجح والتليفزيون ذي الثماني قنوات، مع أن كل مــا نراه من قنوات التليفزيون في ديــروط: الأولــى والثانيــة بوضوح وجمال، ثم السابعة – قناة المنطقة – التــي يطغــى عليها غبش وعدم نقاء، مع أننا نراها رائقة نقية في العاصمة – أي على مسافة ٣١٣ كيلو مترًا – وكأن الحكومة لا تهــتم إلا بأهل العاصمة، بعد ذلك لن ترى أي قناة أخــرى، لكــن صديقنا عامر أبو الحاج يونس قادر على إقامة طبق استقبال ضخم على منزله الكائن في العزبة التي أراها واضحة على الشاطئ الآخر من بحر يوسف. ويفخر بأنه يرى مــا يزيــد على عشرين قناة، وله الحق في ذلك، لكنه سيظل واحدًا من قلائل يمكنه أن يرى ذلك، حتى أن ابنته – المتزوجة قريبًــا منه – رأتني في إحدى القنوات الفضائية ضيفًا على المذيعة النشطة هالة سرحان، فأصبح ذلك الحدث المفتاح الأصــلي لأي حوار مع النوع النادر، الكل مأخوذ مبهور مشدود إلــى

التليفزيون وبحر يوسف يتلوى في المنطقة كلها يبحث عمن يرى ما فيه من جمال وفتنة ورواء، آه لو استطعت أن أتسكع في هذه المنطقة بصحبة واحدة من الفاتنات – سواء من العاصمة أو قريتي؟ كيف؟؟ ومن الذي يسمح لك بذلك حتى ولو طبقت شهرتك كل الآفاق، حتى لو ظهرت صورتك على كرتون النتائج المعلقة في الحوائط مثل نجوم الغناء والطرب والتمثيل والفتنة والإغراء، السؤال مرة ثالثة: هل يمكنك بمفردك أن تتجول في تلقائية دون أن تلتقي بمن يسألك دائمًا: يا عم رايح فين؟؟

كنت أفكر في ذلك وقد ظهرت مؤخرة قارب يتأرجح، اندست مقدمته في أعشاب الشاطئ وكانت زليخا – زوجة العزيز قد عادت تبتسم مشيرة إلى القارب.

٢- الرحلة الممتعة... جداً

لا يهم: سوف استخدم هذا القارب في رحلة لم يألفها هذا القارب نفسه من قبل، أو هكذا تبدو الأمور المألوفة، هل جمع هذا القارب – المتأرجح على مياه بحر يوسف – عاشقين من قبل؟؟ كنت قد جلست قليلا ثم قمت، الناس عادة في هذه المناطق يستخدمون القوارب في النقل أو الصيد، مع

أن العشق لا يقل أهمية عن النقل والصيد، نخلات وشجرات وقليل من الغيوم تتناثر في الأفق، حاولت أن أجد طريقًا للهبوط إلى القارب وفك وثاقه كي أستعمله في الفسحة الجميلة، هل يمكنك الآن أن تجيد التجديف، لا أقصد التجديف بالمعنى الديني الفكري، بل بمعنى تحريك المجدافين بطريقة لائقة كي أتحكم في سير القارب وأشعر بالعذوبة – واللذة أيضًا، لو أني أملك القدرة على إصدار الأوامر لجعلت كل هذه القرى نائمة في حقولها كي تتركني أستمتع وبينما كنت أحاول اختيار فاتنة تصلح لمهمة العشق، سمعت صوتًا يكح، وتخرج الكحة من جوفه مخنوقة، نظرت حولي فوجدته قريبًا مني: كان نائمًا حينما أحس بوجودي، فاعتدل من نومته تاركًا نصف جسده مفرودًا ممتدًا على الأعشاب، ألقيت عليه السلام، كانت ملامحه معروفة لدي، اقتربت منه أكثر لكنني فشلت في الوصول السريع إلى اسمه، سألته عن حاله فشكرني، قلت له إنني أريد أن أتفسح، نعم؟؟ أتفسح بالقارب، يعني أن أركب القارب في فسحة. قال ضاحكًا: مثل قوارب ... وأشار إلى بحري يعني العاصمة، قلت نعم، كان حواره معي يعني أنه محرج أن يسألني عن شخصي، وخلال

ذلك حاولت أن أصل إلى اسمه أو اسم عائلته مـن ملامحـه الواضحة، فألقيت له باسمي ليتلقفه فرحًا، لقد سـمع عنـي، وبعد أن أصبحت المسألة أقرب، وافقني – دون اقتناع بـأن يصحبني في القارب للفسحة، مع اهتمامه بتأكيد أن القوارب لم تصنع أو لم تخلق للفسحة في بلادنا.

عندما ساعدني في النزول بـين أعشـاب الشـاطئ الشرسة، كي أصل إلى القارب، كانت سعادتي، قد بدأت تثير في الجوانح لذة مفقودة من زمن طويل، وبعد أن هيـأ لـي القارب كي أدخله وأجلس دون معاناة أحسست بضـرورة أن أمنحه نقودًا، فلنجعل هذا آخر الرحلة، فقد يتسبب الأمر فـي اضطراب يودي بالرحلة كلها، ولذا فقد ازددت سعادة وأنـا أجلس في صدر القارب، حينئذ أصبح القارب مهيأ للإبحار، حتى صوت مجدافيه بدأ أكثر شاعرية ولطفًا حين شكوت من الصوت العالي الناجم عن اصطدامها الشرس بالمياه، وكـان بحر يوسف يبتسم ونحن نوغل على سطحه، كنت في حاجة إلى الصمت، وعندما رأى رفيق رحلتي – وقائد قاربي – أن يجاملني بإذكاء المديح لحياة العاصمة، ابتسمت له طالبًـا أن ينسى ذلك الآن، كانت القاهرة – مستعدة في أية لحظة – أن

تداهمني بكل ما أكرهه فيها، فظل الرجل صامتًا لكنه أيضًا ظل مبتسمًا، وكنت أجول بعيوني، في التواءات الشاطئ البرية – لم أقل الوحشية، والصمت الرومانسي، مقطوع بأصوات تهب بين الحين والحين لعصافير أو طيور أخرى، أو نداءات تأتينا خفيفة من الشاطئ الغربي، كل شيء يمثل لوحة كبرى للوجود الجميل، قال الرجل – لا يزال يضحك مبتسمًا – هل تذكر ابن رزق؟ قبل أن أجيب، قال انظر ونظرت إلى حيث يشير، هناك عند النخلات، هذا غيط الشايبة (اسم الحوض أو المنطقة) وقبل أن أتذكر شيئًا عن غيط الشايبة كان ابن رزق أو عطية قد قفز في مركز الذاكرة، فقد خطفه أحد مجرمي الأشقياء، وطلب دية من أهله كي يعيده، وبعد أيام – أي بعد أن جمعوا الدية – أشار لهم وسطاء الإفراج، عن ابنهم الصبي إنه في حقل الشايبة تحت هذه النخلات. كنت صغيرًا أيامها لكن الكارثة لم تفارق ذاكرتي، وقد كتبتها هنا في "المصور" – من شهور؛ ذلك أن أهل الصبي، وجدوا بقاياه: عظام الذارعين وساقين وجمجمة، مربوطة في حبال، لقد افترسته الذئاب والحيوانات المفترسة في الحقول، قلت لمرافقي؟ في الحقيقة أنا غير مهيأ لذلك،

يبدو أنه لم يفهم، فظل معتذرًا في ابتسام واضح الجهل، مساء أي يوم – منذ جئت من أيام – أجلس مع أصدقائي فلا نتكلم إلا عن الطحلاوي محافظ أسيوط الذي يسعدهم أنه غير كل المحافظين الذين وفدوا على أسيوط من قبل، ثم يؤلمهم أن المحافظ حاول إعادة النظام لشوارع ودروب ومخابز ومطاعم ومجازر ومدارس ومستشفيات المنطقة، فإن لم نتكلم عن الباشا المحافظ فلابد من الكلام عن رئيس مجلس المدينة عبد الرحمن حافظ، أو مسلسلاته وأفلام التليفزيون والسينما، والسؤال الفج الدائم: هل قابلت الباشا المحافظ، هل قابلت العفريت الأحمر، هل رأيت ليلى علوي، هل تعرف أحمد زكي، هل أصدقاؤك كلهم من الممثلين والمغنيين، لا أحد يذكر الأدب وأصدقاء الكتابة، لا أحد يريد أن يغادر تلك المنطقة، لكن الرجل – الذي يرافقني في قاربه – لم يفعل ذلك. أحسن. وسوف نقفل الباب.

لكن الباب لم ينقفل، أشار لي صاحب القارب عن قمينة طوب بعيدة، هناك قريبًا من عصارة يوسف جاد الرب، مالها، هناك – وأشار: وجدوا جثة محمد علي غزلي مضروبة بالنار، لزمت الصمت فأحس بحرج، سألني

إنت زعلت؟؟ لم أرد، قال: هناك، نظرت حيث سور الدير المحرق، المكان بعيد جدًا وأراه بصعوبة، وقبل أن يتكلم أشرت له أن يصمت، ففي هذا المكان – وكنا صبيانا – عثرت – أنا وابن خالتي عوف – على جثة صراف القمامصة المدممة المتورمة تحت شجر الساسابان في (مجراية المرج) الآسنة الراكدة، عندما أعلنت لمرافقي ذلك في احتداد وضيق، ظل ممعنا في وجهي وقد اكتساه استسلام، قال في بطء: لا، أنا لا أقصد ذلك، سمعنا من أيام أنهم وجدوا في ظلال السور جثة صبية لم يعرفوا اسمها ولم يعثروا على أهلها.

قلت له إنني – بالفعل أريد أن أتفسح في آفاق بلدتي، فقرر أن يلزم الصمت، لكن الجثث بدأت تتسلل إلى ذاكرتي، عائمة على الماء، أو محجوزة عند القناطر أو ممزقة في حقول الأذرة والقصب، أو ملقاة عفنة بين أعشاب شواطئ الترع.

كانت أعشاب الشاطئ تحوطني، وتحاصرني، حينما طلبت من مرافقي – في حسم – أن يعود إلى البر، وقد تحول وجهي بعيدا عنه.

جولة ضرورية في مسائلنا المؤلمة

١- الوَحَسة

● ● توقفت كثيرًا أمام (الوحسة)، وأمعنت أيضًا كثيرًا فيها، وبحثت عن أصل معناها في معاجم اللغة العربية دون جدوى، إذ أن لفظ (وحس) لا أثر له فيها، وبالتأكيد فإن كلمة (وحسة) لها أثر في اللغات التي داهمت اللسان المصري منذ هيروغليفية الفراعنة، والتي لا تزال لها بقايا لغوية تتقافز حية حتى الآن مثل خبز (البتاو) و(النشو) أي الغصن الرفيع من الشجرة، و(البشكور) أداة تحريك نيران الفرن، وهذه عثرت عليها في العربية أيضًا، وبعد الفرعونية المتعددة اللغات واللهجات كانت أيضًا لغات أخرى قد عبرت على اللسان المصري: الفارسية والرومانية والقبطية واليونانية والتركية والفرنسية والإنجليزية، ولم يستقر سوى اللغة العربية لارتباطها العضوي بالدين الإسلامي، وهناك بقايا اللغة القبطية في صلوات النصارى وفي مكتبات الأديرة والكنائس ثم النوبية بين أهل النوبة، ولا أعرف أية لغة من كل ذلك هي التي تحفل بالوحسة تلك التي كانت تصنع تقويما

لقريتنا، وتضع القصب – قصب السكر – مركـزًا لـدائرة الاهتمام بها.

كانت الوحسة هي الموقع الذي تقوم الجمـال – ثـم الشاحنات بعد ذلك – بتفريغ حمولتها من القصب – قصـب السكر فيها، وهو الموقع نفسه الذي تقف عربـات القطـار المخصص لذلك بخطوط قضبانه، أي أن الوحسة هي مركز تجميع قصب السكر من الحقول، ونقله إلى شـركة صـناعة السكر، وهي هنا بالنسبة لبلدنا – ديروط – كانت أبو قرقاص – أو الفكرية، والتي تبعد عن بلدنا خمسة وأربعين كيلومترًا، أي طول القضبان من أفنية الشركة وأحواشـها إلـى آخـر الخطوط حيث الوحسة المشار إليها، والتي – مع الأسـف – حاولت أن أجد هذا المسمى نفسه على ذات المواقع المشابهة في أدفو وكوم أمبو، كما أني لم أجد كلمـة (الوحسـة) فـي القواميس، أو في المناطق الجغرافية المشابهة، فأيقنت أنهـا تخصنا نحن أهل ديروط – من الآن أو منذ القدم، وأنها جزء من تعريفاتنا المحلية الديروطية الخالصة.

كانت الوحسة تضم حول القضبان أرصفة للشـحن، وعدة أكشاك يستعملها موظفو الشركة في حصر القطـارات

وعد العربات وما إلى ذلك من شئون كتابية، ونادرا ما يحتاج القطار إلى وقود، لكن المخزن الجانبي كان يحتفظ بكمية من الفحم حتى تغيرت إلى قطارات الديزل، ويبدأ عمل الوحسة أواخر أكتوبر في إيقاع بطيء، ذلك أن القصب الذي يحتاج إلى تكسيره – أي جمعه – يكون قليلا في هذه الفترة، لكن الوحسة تصل إلى أوج نشاطها في يناير وفبراير – أي في عز الصقيع، وعندما كان نشاط الوحسة يبدأ – في الخريف، كانت أسراب الجمال (بدلا من قوافل الجمال) تتحرك من الحقول على الطرق الممتدة إلى مساحات القصب، لتصنع هذه الجمال مشهدا أثيرًا، تتفاعل حوله مواويل الصبر والتجلد والأمل في موسم مربح، وكان كل شيء في القرى الواقعة في زمام الوحسة ينشط ويتفتح، لابد من الإشارة إلى أن موسم جني القطن – آخر سبتمبر وأكتوبر كان أيضًا يتحمل مسئولية هذا الزهو الزاهي الذي يتألق في القرى، ولا يكاد موسم القطن ينتهي حتى تكون الوحسة قد نشطت أكثر ليشارك قصب السكر القطن في زهو مواعيد الزواج والوفاء بالديون وختان الصبيان. وكانت ديروط الشريف – بصفتها – أكبر قرى المنطقة – تبدأ (الليالي الكبيرة) بلية الاحتفال

بواليها القديم الشريف حصن الدين ثعلب الجعرى، وشـيخها الأمير سنان، الأول من صدر الإسلام والثاني من العصـر العثماني، ثم تبدأ فتحتفل مزهوة بالسيد البدوي – نعم الـذي مقامه الأصلي في طنطا، والشيخ الفرغلي، الذي مثواه فـي أبو تيج، ويكون موسم القطن قد انسحب ليظل موسم القصب يسعى في البرودة حتى يبدأ العام الميلادي الجديـد، وتكـون الترع وقنوات الري والجداول قد غاض ماؤها وبدا بطنهـا كالمستنقعات، حيث يكون تنظيم الري قد أغلق كل القنـاطر والسدود في السدة الشتوية التي نطلق عليها (سدة الأربعـين) لاعتقادنا بأنها تستغرق أربعين يومًا.

وحين تبلغ أنشطة الوحسة أوجها، تكون كـل قـرى المنطقة مرتبطة – بشكل أو بآخر – بالوحسـة ... الجمالـة والجمال، العيال التي تخطف أعواد القصب مـن حمـولات الجمال وتخفيها في ثنايا الزرع لتجمع آخـر النهـار كميـة تصلح لتسويقها إلى البيوت التـي لا قصـب لهـا، تجـارة زعازيع القصب (قوالح) تلك التي كانت بعض الأسر القليلـة تستخدمها في إنتاج نوع من الخمور اشتهرت باسم (العرقي)

كما أن مصاص القصب كان يجمع ليصبح وقودا له طاقة عالية بسبب ما قد يكون عالقًا به من السكر.

أما في الوحسة نفسها، فقد كانت تنتظم – بقضبانها – خطوط المناطق التي تقف عليها عربات التحميل، وكان ذلك يمتص عددا هائلا من عمال التفريغ (من الجمال) والشحن (في العربات) كما أن بعض العائلات كانت تتعمد تشغيل أفرادها في الحراسة والخفر، وهو أمر لم يكن ذا شأن إلا من باب التكسب من الشركة وابتزاز الفلاحين، وكانت محطة الوحسة هذه المنقسمة إلى محطتين: محطة مباحة لأي فلاح عنده قصب، ومحطة أخرى – في نهاية الخطوط – لا يستعملها سوى أحمد باشا قرشي، ولا يستعملها الفلاحون أبدا مهما ضاقت بهم المساحة المخصصة لهم، وخلال الشحن والجر وحركة القطارات في مسارات خطوطها – وهي بعيدة عن خطوط ركاب قطارات الوجه القبلي وإن تقاطعت أو توازت في بعض الأحيان – وكثرة الحركة والسعي وسط أكوام عيدان القصب، لابد أن يقع فلاح من فوق عربة قطار قد علاها القصب، أو يمر القطار على فلاح أودي به عمق النوم فظل يتقلب حتى أصبح بين العجلات.

لكن كل ذلك – أيام الوحسة – من أعياد ومناسبات وحوادث قد تم تدميره بعد توقف زراعة قصب السكر في مساحات كثيرة، كما أن الفلاحين أخذوا يتراجعون عن زرع القطن لما يسببه لهم من إرهاق رعايته وتكاليف إنتاجه، ثم لم تلبث أن جاءت الفتاوى الدينية لتلغي الليالي الكبيرة التي كانت قريتنا تقيمها فرحة ومزهوة، فبدأت القرية تترهل وتتثاءب أمام التليفزيون.

وكان ذلك سببًا قويًا في إنجاب وإنتاج تلك الجماعات الإرهابية، إذ لم يعد الإحساس الطقسي الرابط للعمل والكفاح والكد بين الفلاح وموسم الإنتاج قائمًا، كما أن الأموال التي جاءت في طوفان القادمين من الخارج ساعدت على التهوين من شأن وقيمة الزراعة بما فيها من إجهاد.

وظهر جيل لا يحتاج إلى العمل وغير مجبر عليه، لكنه طاقة تتحرك دون (وحسة) تشغله بعرباتها وتحميلاتها ومراعاة ما فيها من عيدان قصب هي ناتج جهد مزمن، وبدون الحلاجات التي كانت تعمل على محصول القطن، فبأي وسيلة يمكن أن يصبح للفرد تقويمه النفسي الخالص الذي يربطه بحركة السنة ومرور الأيام؟؟

مازلت غير قادر على مبارحة نقطة الوحشة دون الوقوع في مصادرة الكتب حتى ولو كان الحكم الأخير قد رفع رأسنا، ومنح عقلنا فخرًا وزهوا، فالأمر أصبح أخطر من المصادرة ثم الحكم بالإفراج، إذ أننا نعيش في عصر يرعى (كله) المصادرة، أو الضبط، أو أيًا من تلك المداهمات التي تستخدم تعويقًا للأفكار الجادة والمحررة، وصدًّا لحركة العقل المعاصر نحو الجدل والمناقشة، والخنوع إلى ما هو قائم دون تمحيص وبحث وتحليل، إذ يستحيل علينا أن نملك القدرة على التخيل، وامتداد الخيال إلى آفاق أبعد مما يراه عموم الناس، ما دام هناك متربصون ومراقبون ومتشبثون بأنماط قديمة من الأفكار، ومن السلطة ومن السلوك أيضًا.

٢- تيسير الحياة

ولأني أسافر كثيرًا داخل بلادنا، هذا السفر الذي يكاد يكون نوعا من التسكع أو الصعلكة – بالمعنى الراقي لهذا النوع من السلوك، اتضح لي أن جهدًا كبيرًا نبذله للتعويق والحد من الحركة، ومحاصرة الخيال، وإضفاء المرارة على ما قد ننشده من راحة، وهي أمور أصبحت عادية مقبولة بعد أن سادت وهيمنت على حركتنا كلها، ويكاد من يتصدى لها

أن يقاومه الآخرون الذين – من المفروض – أن يحتمي بهم وبذوقهم، كنا في طريقنا – ليلا – من أسيوط إلى ساحل سليم، الجو منعش والرفقة طيبة والسيارة تمرق وسط الحقول، غير أن سائق السيارة ظل يمارس هذه الهواية الفجة: آلة التنبيه، عمال على بطال، نعم: هناك سيارات أخرى نراها بين الحين والآخر قد تستدعي التنبيه، لكن الإصرار على الاستخدام، المكثف والدائم لهذا الصوت يدعونا للتوتر، طلبت منه – وكنت جالسا بجواره – أن يخفف من استخدام آلة التنبيه – وخصوصًا أن صوتها مزعج جدًا – فتوقف السائق متبرما ضيق الصدر عن ذلك فترة بسيطة جدًا ثم عاد يرسل هذا الصوت بشكل أعلى وأكثر إقلاقًا، نبهته بصوت غاضب، وحين نظرت خلفي: وجدت زملائي يبتسمون (في حرج) وكأني أطلب شيئًا يسبب هذا الحرج، مع أننا ذاهبون لندوة ثقافية، أي نحتاج إلى نوع من الهدوء، بالإضافة إلى الجو القروي الذي لا يستدعي مثل هذا الضجيج، ولم أفلح، فاضطررت – في توتر – أن أبرز غضبي، وهو ما يعني أن ما أنشده من هدوء سلس سعيًا وراء هدوء الأعصاب وروقان البال، قد انهار تمامًا. وقبل

ذلك بأيام دخلت عربة القطار سعيًا وراء المقعـد الموضـح رقمه على التذكرة، فوجدته مشغولا، يا عـم: هـذا المقعـد محجوز، فأشار لي أن أجلس على أي مقعد فاض، قم أنـت يا سيدي – واجلس كما تحب، وبعد شد وجذب وتوتر، قـام السيد المشار إليه وترك لي المقعد، فهل تعتقد أنني جلسـت في المقعد واسترخيت تاركًا خيالي يسرح بحثا عـن فكـرة جديدة لقصة جديدة، وخذ عندك: المتسولون الذي تجـاوزوا التسول إلى الابتزاز، سائق التاكسي الذي – في كل مـرة – يكرمش وشه ويرفع الجنيهات إلى أعلى مستغربا: إنه يراها قليلة، صغار الضباط – في الصعيد بالذات الـذين يجلسـون بجوار السيارات المدرعة وقد وضع قدمه على مقعد آخـر، ليصبح عائقًا نفسيًا يتساوى مع عوائق المرور المزروعة في الطرق، الباعة الذين يتفنون في دس الفاسـد والقبـيح فيمـا تشتريه، أصحاب المكتبات الذين يعيدون تسعير الكتب فـي نهم، رئيسك في المكتب الذي لا يفهم ولا يريـد أن يسـلك سلوك من يود أن يفهم، الخبز الذي نشتريه غير صالح لأي غذاء آدمي ويسبب لنا كمدًا وإحساسًا بالمرارة، الملح الـذي يباع عيني عينك في الشوارع وهو ملوث لم يمـر بمراحـل

تنقيته، والذي يكاد يكون وراء كل أنواع أمــراض الأمعــاء والكلى والكبد، الأصوات الصاخبة المقلقة من المسجلات في السيارات والشوارع وشقق الجيران المفتوحة النوافذ، ثم هذه الأصوات المرعبة التي تندفع من مكبــرات الصــوت فــي حفلات الزواج أو سرادقات العزاء، ثــم إســاءة اســتخدام مكبرات الصوت في المساجد احتماء بأن أحــدا لــن يعلــن اعتراضه على أصوات تذكر اسم الله والضراعة إليه، أثــر الرصاص في الأيدي بعد قراءة الجرائد وما يتسبب فيه حين يتسلل إلى الجسد وبالذات الرئتين (لماذا لا يحدث ذلك مــن الجرائد الأجنبية؟) العيال التي تقف بعد منتصف الليل علــى النواصي – وبعضهم يسخر من العابرين – مع أن دوريــات الشرطة تظل تطوف في المنطقة دون عمل جــاد، وهنــاك مجموعات العيال الذين يلعبون الكرة آخر الليل في شــوارع لا تصلح إلا للعبور من كثرة تضخمها وازدحامها.

فإذا تركنا السيارات والقطارات والشوارع، فســوف أحكي لك ما حدث في فندق (كذالوفا – هــذا اســمه) فــي سوهاج، وواضح من المدخل وملابس عماله أن الفندق جميل ومريح، الحجرة المخصصة لــي ضــيقة، لا يهــم، جهــاز

التكييف لا يعمل، اتصلت بالتليفون فقام بتشغيل الجهاز من عنده، أي أنني لست حرًا في تشغيله من حجرتي، وبذلك أصبح غير قادر على التحكم فيه بما يناسبني لكنهم يرون في ذلك حكمة لمواجهة سوء استخدام الجهاز، لا يوجد أكواب مياه، ومثلنا في حاجة إلى مثل هذه الأدوات – وخصوصًا من يضطر إلى استعمال الفوار – علاج النقرس، واتصلت تليفونيًا فجاء العامل بكوب صغير من البلاستيك من النوع الذي تضعه المطاعم ذات الخدمة السريعة بجوار مبرد المياه بكميات كبيرة، فطلبت كوبا من الزجاج لأن ما يناسب الكافيتريا لا يتواءم مع الإقامة المريحة في فندق، فرفضت إدارة الفندق، أيضًا لأنها ترى في ذلك علاجًا لاستيلاء العملاء – على الأكواب أو تفاديًا لتحطيمها – بحسن نية أو بسوئها، صممت على الأكواب الزجاجية حتى جاءوا لي بها، ووقف العامل ينتظر انتهائي من استعمال الكوب حتى يعود بها ... !!

فأي تيسير للحياة يمكنك أن تجده في ذلك؟ وكيف يتسنى لفندق يتقاضى أجرًا عاليًا للإقامة أن يفكر بهذه الطريقة؟؟ فإذا عالجنا ذلك، فكيف نعالج عدم وجود مصباح

(أباجورة بجوار السرير – لقراءة الجرائد، أو للكتابة؟؟ أي كيف لمقيم في فندق مثل هذا أن يقوم إلى مفتاح النور في الحائط المقابل كي يطفئ النور؟ وأي كراهية يمكنها أن تستحوذ عليك إذا ما واجهت كل ذلك في فندق فخيم التكوينات، منخفض الإدراك لمعنى تيسير الإقامة لنزلائه، وبعد كل ذلك. أي جحيم يمكن أن تكون الإقامة فيه مهما انحنى عماله امتثالا بين يديك؟ وكيف ينتقل سلوك (العوام) المروع والمهلك في الشارع إلى فندق – فخيم – عمله الأصلي هو تيسير الراحة؟؟ أليس هذا يمهد لعقلك وسائل الخضوع حين مصادرة الفكر؟

بالتأكيد أصبح الجو العام والخاص – وأي جو حولنا تحت أي اسم – فاسدًا وصعبًا، وقاسيًا، كل شيء يصيبنا بالاكتئاب والانزواء، وهو ما يساعد على عدم المقاومة – قانونيًا وقضائيًا.

هذا الاتجاه لمصادرة أفكار الباحثين وخيالات المبدعين مما يزعزع رسوخ الانتماء لهذا الوطن، وخصوصًا أن كثيرا من بلاد العالم الثالث – التي كانت مصر عاملا أصيلا في حريتها، فاقت مصر في مناقشة

عصرية للموروث في العقيدة والإبداع والفكر، ودليلنا على ذلك أن كتاب (رب الزمان) للدكتور سيد القمني والذي صدر هذا الحكم العظيم برفع المصادرة عنه، نشرت فصوله في كثير من الدوريات العربية دون أن يواجه هناك هذا الذي يواجهه هنا.

وليس سرًا أن الأزمة التي داهمت – من فترة قريبة – كتب الدكتور نصر أبو زيد وأدت إلى مصادرة أفكاره مع الزج به في ردهات المحاكمات، ترتب عنها أن كثيرًا من الدول – من العالم الأول الأوروبي، أو العالم الثالث في آسيا – قدمت له إضاءات واضحة كي يغادر مصر إليها، فاختار هولندا ليكون في بلد خارج المقارنة مع مصر، إن عددا من الدول المجاورة لنا – في الخليج العربي أو شمال أفريقيا أو وسط وجنوب آسيا كانت مهيأة لاستقبال هذا المفكر المصري، وهو – مع الأسف – ما حدث بشكل آخر في عصور مختلفة من قبل، حيث يجد الأستاذ المصري والمفكر المصري، عوناً كبيرًا كلما وقع أحدهما في مأزق مع السلطات المصرية – الدينية، أو الأميرية.

ولذلك فإن الأخطار التي تضغط على العقل المصري الآن، في الشارع أو في الكتابة – سوف تؤثر في إحساســنا الوطني، وفي غيرتنا على هذا الوطن، وفي المعني العميــق للوطن وهذا دون أن أضيف الموضوعات الأخرى التي مللنا الكتابة فيها: الفساد والارتشاء، والغلاء الســاحق، وانهيــار الذوق العام، والجليطة، والبلطجة، وأمور أخرى مريرة.

أنا ... والحكومة

●● اصطدمت بالحكومة مبكرًا، كانت أختي الكبرى تحملني على كتفها وتخترق الطرق وسط الحقول حتى تصل – في البكور المناسب إلى المستشفى الأميري، كانت الأمور منضبطة أيامها، حيث يخرج التومرجي من داخل المبنى المخصص للعيون ليقف على درجات السلالم الأسمنتية العريضة ممعنًا في الجماهير، عيال وشيوخ ونساء، الكل ينظر بعيونه الرامدة الدامعة إلى هذا التومرجي، وقد وضعنا كفوفنا على العيون اتقاء الضوء، وكانت أختي قد أنزلتني من فوق كتفها فوقفت على الأرض باكيًا مشاكسًا، والتذكرة العريضة – بمساحة كراسة – في يدها، لم أكن تجاوزت الثالثة من عمري بأية حال، لكني – دون انتظار لتصديقك – لا زلت أتذكر – بوضوح – أمورًا حدثت قبل ذلك أيضًا، وبعد أن يشبع التومرجي من الإحساس الواثق بهيمنته على كل هؤلاء الواقفين في مستوى قدميه، يبدأ فيشير إلى واحد منا، لم نكن في طابور، بل مبعثرين

تحت درجات المبنى، وكان التــومرجي – دائمًــا يبــدأ باختيار العواجيز: واحد واحدة، كل واحــد – واحــدة – يصعد الدرجات في إرهاق حتى يصل إلى التــومرجي، هذا الذي يلقي نظرة سريعة إلى تذكرته العريضــة، ثــم يسمح له بالدخول إلى المبنى، كانت أختي – عندما يحل الدور – ترفعني فوق منتصفها، حيث يصبح عظم أعلى الفخذ مسندًا، وتصعد بي في قــوة، وكثيــرًا مــا كــان التومرجي يمد أصابعه إلى عيني اليمنى، وبحركة مدربة وخبيرة يفتح عيني كي يحس بأنه يمارس اختصاصــات طبيب، ثم يزوم بصوت يصعب ترجمته إن كــان هــو الرضى أو الاحتجاج أو عدم الارتياح أكون أنا حينــذاك قد صرخت لحد التشنج، سيخ من النار يخترق عينــي – تلك التي يزداد انهمار دمعها، فيقرصني الرجل في خدي غاضبًا – نوع من الغضب الأبوي الذي أحس به، لكنني لا أسكت، كنت قد كرهت هذا التومرجي كراهية العمى، لكن الواقعة الأكبر حين أدخل المبنى، فأجد – ولم أنــس ذلك أبدًا – إناء معدنيًا مليئا بالقطن والشاش والزجاجات

بسوائلها ذات الألــوان المتعـددة: الأحمـر والأخضـر والأزرق بالذات: كان الطبيب – بعد أن جعـل أختـي تتشبث بجسدي كي لا أفرفط أو أهتز – يضع الشاش في الماء الساخن، ثم يعصره داخل فتحة عيوني، وبعده يعود فيغسل عيوني بقطعة أخرى من الشاش المشبعة بسـائل أزرق أو أخضر، وكانت المسألة كلها لا تتعدى الـدقائق الثلاث، لكنها كانت جحيمًا، يظل يخترق دمـاغي حتـى بعد أن يتركني الطبيب لواحد من مساعديه كـي يـربط عيني بوسادة من القطن تلتف تحت ضاغط من الشاش.

يومًا بعد يوم، المشوار نفسه والتومرجي نفسـه، والوقفة نفسها تحت درجات المبنى، ثم الصـعود إلـى المبنى بالقرصة الأولى في الخد، ثم تطهير عيني بالماء الساخن والسوائل الغامضة، ثم القطن والشـاش، حتـى فقدت عيني بصرها تمامًا.

غير أن أهلي لم يقتنعوا بأن بصر عيني اليمنى قد فقد، ذلك أن الحكومة لا تفهم في الطب، وآيـة ذلـك أن خالي – الذي كان أيامها معلمًـا بالمدرسـة الأوليـة –

ويرتدي الجاكتة على الجلباب أسوة بالأفراد الذين أتيحت لهم فرصة الخروج على أزياء الفلاحين، خالي هذا – ذو الكلمة المسموعة في ربوع القرية – أمـر زكـي عبـد الرحمن – أشهر تومرجي في قريتنا أن يأتي إلى بيتنـا لعلاجه، كان الرجل مثابرًا صامتًا، نظيفًـا أكثـر ممـا تتصور، بالقطارة يفتح عيني اليمنى – وأمي تحضـنني كي لا أفسد الموقف، ويضع القطرات فيها، ثم إلى عيني اليسرى فيشبعها تقطيرًا، لا زلت أذكر عيون عمى زكي هذا، كانت عيونه مغلقة لا أثر لبصيص انفتـاح فيهـا، والنار تشتعل في عيوني، مع قليل من السباب احتجاجًـا طفوليًا ضد أمي وعمي ذكي، ابن الكلب الأعمى، الـذي كـان يجمـع حاجياتـه ويمضـي دون غضـب أو رضى، حتى أصابه الملل – أو عدم حصـوله علـى الأجر، فبدأ يتوقف، مما أجبرني على التوقف – محمولاً فوق كتف أختي الكبرى – كي أتعامل مع الحكومة مرة أخرى.. لكن أبي قالها واضحة: الحمد لله على ما نحـن فيه ولا داعي للذهاب للمستشفيات ذلك أن زكـي عبـد

الرحمن كان قد همس لأبي أنه لا أمل، وأن عيني اليمنى ضاعت، مع أن تكويناتها واضحة السلامة حيث لا أثر لأن أكون أعور بما يعنيه هذا من تشويه أو تمزيق في العين، صهرنا الذي تزوج بأختي هذه كان كذلك: أعور، وبالغ الدمامة، لكن القياس – بالطبع – والتقدير لا يخضع للشكليات، وخصوصًا أن هذا التومرجي الصامت – زكي عبد الرحمن حدث له موقف جعله يعتزل الناس باكيًا: فقد كان ابنه الوحيد قد أصبح موظفًا في الحكومة، وعندما جاء ضيوف غرباء لزيارته – المنصب الوظيفي الأميري في شكل كاتب بوزارة الأشغال – قدم أباه لضيوفه على أنه "الخدام": وكاد أبوه يموت كمدًا، ومن يومها توقف عمي زكي عبد الرحمن عن الكلام.

لكني بعد سنوات قليلة عدت صبيًا إلى المستشفى نفسه لأعالج من البلهارسيا، كنت أتبول دمًا شائكًا مؤلمًا، وظللت أتلقى الحقن: توخذني في زراعي ثم توخذني في أعلى الورك، أذهب إلى المستشفى البعيد وقد افترشت جلبابي بقع عديدة واضحة الصفرة الدامية، وفي السنة

الأولى الابتدائية جاء عبد الرءوف فرجاني – من بـــبلاو وكان حكيم الصحة المدرسية، وكنت أنا شـــاطرًا جـــدًا وترتيبي الأول، والدروس والعلوم التـــي نتلقاهـــا فـــي المدارس الابتدائية – في تلك الأيام – تضـــارع أعلـــى مستويات التعليم الآن وفور تحريكي بين يديه، بعـــد أن حكيت له ما جرى من حقن البلهارسيا، أمر بأن العـــلاج سيكون حقنة معينة اشتريناها من صيدلية ناثان التي على ترعة السواحلية بسبعة قروش، وكان الصيدلي – أيامها – يقوم بعملية الحقن مجانًا، كانت الحقنة شديدة الإيـــذاء في وركي الذي تورم بعد ذلك بعدة أيام، ينقطع التبـــول الدموي نهائيًا.

لكن الحكومة جاءت مرة دون أن تكون في شـــكل طبيب أو ناظر أو تومرجي، وقد قتل عبد العليم العمدة، كان رجل ضخمًا قويًا مشهورًا بالسطوة الفائقة على كل القرية، ومع أن القرية – عندما كانت تقتل أحد رجالها – تحتفظ باسم القتلة دون أن تتسرب الأسماء للحكومة، إلا أن قاتل عبد العليم العمدة ظل غامضًا لا يعرفه أحد حتى

الآن، ولقد تذكرت عملية القتل هذه في الأحقاب الأخيرة حين اغتيل الرئيس محمد أنور السادات، كان عبد العليم العمدة خارجًا من قصره يودع بعض ضـــيوفه كعادتـــه، والسلم الرخامي في قصره يؤدي إلـــى حديقـــة واســـعة مزهرة ومثمرة، والمسافة طويلة بين الباب الخـــارجي – وباب الحديقة – وباب القصر ذي الدرجات الرخاميـــة، كان الجو عليلاً والقوم مبسوطين على الآخـــر، وكانـــت بيوت المعاوضة – عائلة العمدة – تضاء بموتور إضاءة خاص بهم، وهو ما كان يفعلـــه أيضًـــا الأثريـــاء مـــن القمامصة، حيث لم يكن النور قـــد دخـــل القريـــة (أول إضاءة كهربائية للقرية أوائل الســـبعينات اســـتفادة مـــن كهرباء السعد العالي)، وفي هذه اللحظة انطلـــق عيـــار ناري ذو صوت ثقيل، يقال إنه بج بطن العمدة وأخـــرج أمعاءه، وفور الصراخ المبدئي، ثم انتشار الخبر، جاءت الحكومة، ممثلة في الهجانة، وهم عساكر سود الملامح، يتناقل الناس أخبارهم تحـــت لقـــب البرابـــرة، وكـــانوا يستخدمون بنادق غيـــر مألوفـــة ويمتطـــون الجمـــال،

ويتحدثون لهجة خاصة قريبة من لهجة الفنان علي الكسار، ويعتدون بالضرب بالكرباج على أي مخلوق يجدونه بالشارع، كانت الأحكام العرفية (الطوارئ) قد أعلنت وسط قوم لا يدركون معنى الأحكام العرفية، العائد من الحقل أو الطاحون أو البندر، نساء كن يزرن أقارب أو حلقات الزار، فقد تعودت قريتنا أن تدفن في مقابرها بين وقت وآخر جسماناً مقتولاً دون أن يؤثر ذلك في سلوك أفرادها، إلا في حكاية مقتل عبد العليم العمدة، وظلت مطاردات البرابرة لأفراد كانوا في الشوارع ليلاً مدعاة للتهكم والتسلي وإثارة للسخرية، ثم هناك اصطدام البرابرة بهؤلاء الذين يقومون قبل الفجر بوقت طويل ليتوجهوا للمساجد، وفي رواية عبد الرحمن الشرقاوي سوف تجد البرابرة – الهجانة – في آخر الأمر يصادقون الفلاحين، الكتابة شيء والواقع شيء، قريتنا – وفي عدة مواقع مختلفة – لم تصادق الهجانة أبدًا، لكني – حين كنت أنام – كان واحد من الهجانة يداهم أحلامي،

يضربني بالسوط أو يدفع الجمل كي يدوس على جسدي، ظللت مرعوبًا من الهجانة.

لكن الأمر اختلف بعد ذلك – في علاقتي بالحكومة – حينما شاركت في تضليلها، وذلك عندما قتل فانوس أمام بيت محمد عثمان، فقد قامت أسرة القاتل بتهريب البندقية إلى بيتنا الكامن خارج القرية، وقام أبي – وكنت معه – بلف البندقية بالقماش القديم، ولم أكن أعلم أن أبي له هذه الأفكار، ثم اخترق حقول الذرة بالبندقية حتى وصل إلى بقعة صغيرة بها ارتفاع يحول بينها وبين أن تغمر بالماء، وحفر حفرة عميقة بالفأس الصغيرة (الفواسة)، ودفن البندقية بكيسها في الحفرة، ثم غطاها بالتراب والأعشاب...

وجاءت الحكومة – بالفعل في مساء اليوم نفسه الذي قتل فانوس في صباحه، ضابط ورجال عديدون وعشرات حولهم من القرية يتفرجون ويدوسون على الأرض المزروعة دون مراعاة لزراعاتها، وقام الضابط ومعاونوه بتفتيش البيت، ثم فحصوا المناطق المجاورة

من الحقول، لكنهم لم يتعمقوا في غابات الذرة المروعة، وخرجوا أو عادوا إلى القرية، ومن الغريب أن الشـــاهد الوحيد على مقتل فانوس كان شيخ الخفراء – أيامهـــا – والذي قام بتغيير شهادته أمام المحكمة، وخـــرج القاتـــل براءة، وطالب أهله أبي بالبندقية، كانت شهور عديدة قد مضت، وتغيرت زراعة الذرة الصيفية إلى برسيم، ثـــم بوادر الفول، وعندما حفر أبي الربوة الصغيرة لإخـــراج البندقية من مكمنها، كنت سعيدًا لأننا ضـــللنا الحكومـــة طوال هذه الفترة، لتطلع البندقية بشكل لا علاقة لها فيـــه بأية بندقية على الإطلاق، كانت لفائف القماش القديم قـــد تأكلت تمامًا بفعل الرطوبة، ثم تآكلت أجزاء البندقية ذاتها خشبية كانت أو معدنية، ذلك أن أبي الذي اختار الربـــوة التي لا تصلها مياه الري، لم ينتبه إلى أن الحفر للعمـــق سوف يصل بالحفرة إلى المياه المتسربة، والتي – بالطبع – وجدت ضالتها في الامتصاص السريع للقماش، والذي بدوره شوه البندقية تشويهًا مروعًا، حتى أنها فقدت آليـــة

إغلاقها أو فتحها، فلما حاول أبي أن يفتحها عنوة، تفتتت أجزاء كثيرة منها.

لكن أهل القتيل لم يقتنعوا بأن هذه (البتاعة) هي بندقيتهم، وطالبوا أبي بثمن البندقية التي رأوا أنه قد يكون قد تصرف فيها، وقد ترتب على ذلك ضيق وأسف واضطراب في منزلنا، لكن المطالبة فترت، ونسي الناس الموضوع كله.

ولم ألبث بعدها أن وجدت نفسي أطالب بسقوط الحكومة، كانت المظاهرات قد انفجرت في المدينة، وقامت المدرسة الثانوية بإخراج تلاميذ المدارس الأخرى كي يساهموا في الهتاف الوطني، كانت المظاهرات الأولى تؤيد الحكومة في موقفها حين ألغيت معاهدة ١٩٣٦، وبعد أن انتشرت أعمال الفدائيين في قناة السويس، بدأت مظاهر أخرى تنادي بسقوط الحكومة الإنجليزية التي ترأسها امرأة، وكان المقصود أن البلاد الإنجليزية لا الحكومة – تحكمه امرأة – هي الملكة إليزابث، ثم بدأت المظاهرات تهتف ضد الخونة

والمخاتنين، ثم كانت هناك مظاهرات ضد (حافظ عفيفي) الذي عين أيامها رئيسًا للديوان الملكي، بعدها ظهرت هتافات أخرى تنادي (إلى الجحيم يا عصر الفساد)، دون تحديد لعناصر الفساد: الملك أو الحكومة، وكان حزب الوفد أيامها مكتسحًا الجماهير المصرية حبًا وولاءً وتصميمًا، وقاد عدلي طلبة عليمي (أين هو الآن) مظاهرات مكثفة تطالب بتحرير الوطن من الداخل والخارج وجميع الجوانب، وفي آخر كل مظاهرة كنت أعود إلى بيتنا معتدًا بمواقفي الوطنية، وكنت أرفض أن أتجاوب مع تعليمات الوالدين في قضاء المصالح، فهل الذي يكافح الحكومة صباحًا يصلح في حش البرسيم وتقديمه للبقرة آخر النهار؟؟

وازداد الأمر غليانًا حينما أتيحت لي فرصة قراءة ما حدث من بلدنا – ديروط – في ثورة ١٩١٩، كان عدد كبير، يتجاوز العشرين من أهلها قد أعدم أو سجن في حوادث التعرض للباخرة الإنجليزية النيلية في (شلش)، أو الحادث العظيم الذي شاركوا فيه أهل دير

مواس في مداهمة القطار الإنجليزي والذي كان يستقله قائد القوات الإنجليز (بوب)، وقد قتلوا عددًا كبيرًا من الإنجليز بمن فيهم (بوب) نفسه.

فلما عرفت ذلك بدأت أعلن – وأهتف – أن بلدًا مثل ديروط قامت بما لم يقم به شعب آخر في ثورة ١٩١٩، لن تركع أبدًا للمستعمر، لكن الحكومة داهمت المظاهرة بعدة خيول، وتفرقنا لنعود في اليوم التالي فنجد أن المدارس قد أغلقت..

دعك من محاولاتي المتعددة – بعد أن توقفت عن التعليم – كي أجد عملا حكوميًا، كانت عيني اليمنى – التي فقدتها جهلا – تحول بيني وبين النجاح في الكشف الطبي، وأعطيت الحكومة ظهري وسافرت إلى القاهرة واشتغلت عند بائع بطانة البدل، رجل عجوز وساخط دائمًا – ويعلن سخطه بألفاظ نابية، فتركته واشتغلت مساعد خطاط في أول شارع محمد علي، ثم عاملاً بمعامل تحميض أفلام سينمائية بالدقي، ثم هجرت القاهرة وهاجرت إلى أسوان بنصيحة من المقاول رجب

النبراوي (وأرجو أن يكون بخير)، حيث عملت كاتبًا عند أحد المحامين، بعدها اشتغلت في شركة المقاولون العرب في السد العالي.

كنت قد نسيت الحكومة تمامًا ولم أعد أتعامل معها في مظاهرات أو وظائف، وكل الذي كان يربطني بها القطار الذي يحملني كل فترة إلى ديروط أو إلى القاهرة في الإجازات، ويبدو أن ذلك أغضب الحكومة فقد اعتقلني ضابط مباحث اسمه محمد عبد الفتاح، وأعتقد أنه هو يرأس أمن مدينة الإسكندرية الآن، وهو نفسه الذي كتب عنه علي سالم مسرحية "عفاريت مصر الجديدة"، لم أكن منضمًا لحزب أو جماعة، ويبدو أنه كان يقوم بالتحصيل اليومي الذي يثبت نشاطه، وبينما كنت أحاول أو أفهم قاموا بترحيلي – مع بقية المشبوهين أو المتهمين – إلى موقع بعيد، عرفت فيما بعد أنه معتقل المحاريق في أول الواحات الخارجة وظللت هناك دون تحقيق من آخر نوفمبر ١٩٦٥ حتى آخر يناير ١٩٦٦ ثم تم ترحيلي إلى أسيوط، وأرسلوا إشارة إلى شيخ البلد إن

كان المشبوه – الذي هو أنا – معروفًا لديهم ليحضــروا لاستلامي، فأفاد شيخ القرية – الشيخ محمد الشــناوي – أنني غير معروف لديهم، وسوف يكون مؤلمًا أن تقــوم الحكومة – حينئذ – بترحيلي (كعب داير) من بلد لبلــد، لكني فوجئت في حوش السجن بواحد من قريتنا يتحــرك في حرية، صرخت فيه، وكان اسمه غائبًا عــن ذهنــي، ولما انتبه لي تذكرت اسمه: يحيى البطران، كان يحيــى يعمل صرافًا، وقد قام – بجهد سريع كي يطلقوا سراحي.

لما سافرت إلى البلد بعد ذلك وذهبت إلــى شــيخ البلد – الشيخ الشناوي – أعاتبه لأنه أنكر أنه يعرفنــي، قال إن الإشارة جاءت محمد أحمد شحاته، ولــيس فــي قريتي من له هذا الاسم.

الأخطر من ذلك أنني ظللت أطــرد ذكــر هــذا الاعتقال من دماغي، كي لا أظل مجــرد كاتــب عــن ذكريات السجن فأقع في دائرته المرهقــة الضــيقة (وإن كان ذلك قد ظهر في بعض قصصي القصيرة)، ولاسيما وأنني لم أكن قد بدأت الكتابة بعد، غيــر أن الحكومــة

كانت لي بالمرصاد، فقد قمت في الفترة الأخيرة بامتلاك مسكن خارج القرية، وإذ بي أفاجأ بأن صاحب (الكــش) الذي يبيع السجاير والمثلجات، هو نفسه الأستاذ يحيــى البطران، الذي أخرجني من المعتقل منذ ما يزيــد علــى ثلاثين عامًا.

وهذا يعنــي أننــي – خــلال عمليــات دخــولي وخروجي من المسكن لابــد أن أرى يحيــى البطــران، وأتذكر المعتقل، وأن أعطي ظهري للحكومة بعد ذلــك كما أشاء.

إبليس ... ليلا

●● ظللت مهمومًا – في تلك الأيام – بسبب، أو من أجل – إبليس، كان سيدنا الشيخ محمد عثمـــان قـــد أمرنا أن ننظف روحنا من إبليس، كنت في الســـابعة أو التاسعة من عمري حينما جذبني الألفة – هذا الذي يحل محل سيدنا الشيخ وينفذ تعليماته ويجمع منا نحن تلاميـــذ الكتاب البلح والكشك والنقود، جذبني الألفة مـــن فتحـــة جلبابي فأيقنت أن الطامة الكبرى قد وقعت، مع أنـــي لا أعرف ما هي الطامة، وأن الفلكة سوف تعد لعقـــابي، أو لتعذيبي، والفلكة أيتها الأجيال الجديـــدة – أداة لتثبيـــت الأقدام في وضع النوم على الظهر لقبول الضرب المبرح بالزخمة، ومطلوب مني الآن أن أشرح الزخمة: قطعـــة من خشب أو خيزران بها لسان من الجلد القوي تستعمل في إحدى أكبر شعور بالألم ضربًا على الأقدام، الفلكـــة والزخمة وراء هروب الجماهير المصرية قبل ثورة ٢٣ يوليو من التعليم، إذ كانت الكتاتيب هي الميناء الشـــعبي الذي يستقبل العيال كي يتعلموا ألف باء، ثم آيات القرآن

الكريم، ثم بعدها استظهار حفظ القرآن الكريم بترتيب قصار الصور (جزء عم) صعودًا إلى صور الأجزاء التالية، والتي نادرًا ما تجاوز أحدنا صغارها في جزء عم، فقد كانت الفلكة والزخمة وشد الأذن قرصًا والضرب بالعصا فوق ظهر الكتف (وهي من أقصى أنواع التعذيب) تحول بيننا وبين الاستمرار في حفظ القرآن، كانت تلقي بنا فلاحين في الحقول والمهن الصغيرة في القرى والمدن المجاورة، لكن الذي يتحمل ويستمر يمكنه أن يدخل المدرسة الإلزامية، أو الأولية، ونادرًا ما عرف أحدنا طريق المدرسة الابتدائية، والتي كان يدخلها أولاد الذوات والأثرياء في البندر القريب، ولذلك فسوف تدهش إن عرفت أن أبناء الأثرياء لم يكونوا – مثلنا – يبدأون مشوار التعليم بالكتاتيب، لم يكن ثمة واحدًا منهم في كتاب سيدنا الشيخ محمد عثمان، هذا الذي شدني فيه الألفة بقوة من فتحة جلبابي كي أقف أمام سيدنا الشيخ مباشرة لأحس بأن الطامة الكبرى قد وقعت.

كتاب الشيخ محمـد عثمـان كـان علـى غيـر مواصفات كتاتيب العالم كله، فسحة رحبة مظللة بتكعيبة عنب، تقوم على كل أضلاعها مصطبة بحزاء الحـوائط مغطاة بالكليم أو الحصير وفي الداخل مضخة مياه فـي غرفة جانبية، وهذا الكتاب ملحق ببيت سيدنا الشيخ محمد عثمان الذي يشبه بيوت الأثرياء في الفرش والحجـرات وعدم اختلاط أهله بالجيران الفلاحين بالـذات – وهـو الأمر الذي لا تتصف به باقي كتاتيب القرية أو القـرى الأخرى.

سيدنا الشيخ محمد عثمان لم يكن أعمـى – هـذه واحدة والثانية أنه لم يكن ذا كرش من كثرة قيادة طقوس الأفراح، لأنه كان قارئًا جيدًا للقرآن الكريم في المآتم فقط دون الدخول في هيصة مأكولات المناسبات السعيدة، كما كان أنيقًا ونظيفًا وطويلا وعريضًا، لقد تعودت أن أقبـل كفه صغيرًا، وظللت أقبل كف الشيخ محمد عثمان هـذا وأنا في أجازات السد العالي في الستينيات..

ذلك أن كتاب سيدنا الشيخ عبد الودود كان مجــرد غرفة رديئة التهوية ملحقة بجامع الشاويش، وهو أعمى، وشرس، ونفس الأمر نفسه الذي ينطبق علـــى كتاتيــب بحري البلد وكل سيدنا في بحري البلد أيضًا.. وبالــذات عند بيوت عائلة الجاحر، التي كانت أيامها عائلة طبقيــة للعائلات لم تتح لها فرصة للتميز إلا بعد ظهور زعيمها الحاج يونس.

وعندما مثلت بين يدي سيدنا الشيخ محمد عثمان، الجالس في صدر الكتاب، أشار للألفة أن يتركني، أمعن في وجهي، وأمرني أن أقترب، فاقتربت مضطربًا أكــاد أنهار، كانت يداه خاليتين من أدوات العقاب: الزخمـــة أو الخيزران، أمرني أن أقترب أكثر، حتى أصابني الجمود والفشل الحركي، حينئذ همـــس فـــي صـــوت واضـــح: سورتك؟ يسألني عن السورة القرآنية التي وصلت إليهــا في الحفظ، "إذا السماء انشقت"، قال في صوت واضـــح: اسمها سورة الانشقاق، أسمعني، "إذا الســماء انشــقت، وأذنت لربها وحقت، وإذا الأرض مدت" قـــال مقاطعًـــا:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قبل قراءة القــرآن، ثــم بسمل: أي قل بسم الله الرحمن الرحيم، قــل – وكنــت أتراجع للخلف خشية هبوط كف سيدنا في أي وقت على صدغي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بســم الله، مــد كفه إلى رأسس فأحسست بــالخوف ينــداح ويتســامى ويتلاشى، إن أحدًا لن يحس بهذا العطف الــدافق الــذي تريقه الكف – إن وضعت في حنان فوق الرأس، ومــال إلي في هدوء وهمس: أين كنت طوال الليل؟

اضطربت اضطرابًا شديدًا، وانحرقت إشــعاعات العطف في ثوان، أين كنت في الليل؟؟ إذن فقد جــاءت شكوى ضدي من مكان لا أدريه، أمي أو أبي أو أي أحد آخر، ذلك أنني كنت في مكان لا يسهل الوصــول إليــه ليلا، قبل أن أجيب عن استفسار سيدنا صرخ في وجهي بشكل مكتوم: إبليس سوف ينفرد بــك، ســوف يقطــع خبرك..

- ١ -

كان بيتنا – الذي أقامه أبي بشكل تلقائي (بدلاً من لفظ عشوائي)، يقع على مسافة صغيرة من القرية، وسط حقلنا الذي كان أبي مشــغولا بتوســيعه دون مراعـــاة لجوعنا، وفي فناء البيت سبع نخلات، ولا يوجد بالمنزل أي أساس ذي شأن، الحصيرة والمخدات الملففة والأجولة الفارغة للسماد والحبوب، والكليم الذي نتغطى به شـــتاء (وقد اندهشت حينما كبرت ووجدت كثيرًا من المنـــازل تفترش الكليم كالحصير)، ثم فوق البيت غرفة بها نافذة، كنت إذا ما استعملتها سوف تجد الحقول وأجمات النخيل تملأ الأفق، وتفتح أبواب الخيال، وتـــدفعني دفعًـــا إلـــى محاولة دخول الحقول ليلا، وكنت خائفًـــا، لكـــن أبـــي صحبني مرات إلى هذه الحقول ليلا، وتركني أهش على البقرة كي تظل دائرة في الساقية وهو هناك يروي الحقل البعيد..

كان أبي – لكي يثبت شـــطارتي – يقـــول عنـــي فرحًا: عفريت، ثم يصفني بالرجولة المبكرة، وكثيرًا مـــا

ناداني: إبليس، ولاسيما في تلك الحوادث المترادفة حينما كنت أشج دماغ ولد في اللعب، أو ألقي التـــراب علـــى رغائف الجيران المرصوصة عجيناً تحـــت الشـــمس، فأفسدها.

غير أن الأمر اختلف حينما أحسســـت بضـــاغط غامض يدفعني للنزول ليلا من البيـــت والســـير وســـط الحقول، كان أبي – حين كنت أصـــحبه – يفســـر لـــي ترتيبات النجوم في السماء، هذه هي نجوم العصي (بضم العين وكسر الصاد وتشديد الياء)، وهذا سواق العصـــا، يقصد النجوم العاصية، (عرفت بعد ذلك أنها مجموعـــة الدب القطبي)، وهذا نجم الجنة الصاعد من الجنـــوب – لأنه في اتجاه مكة المكرمة، وهذه النجمة المســـتحية، أو التي تستحي لأنها لا تظل في السماء طويلاً، وهذه نجوم ثريا، ثم هناك نجمة قرنفلية تظهر في السمر – أي بعـــد منتصف الليل: إنها نجمة الصباح، ويـــزعم أبـــي أنهـــا النجمة التي تحارب الشـــيطان، وأن إبلـــيس يخشـــاها، والدليل على ذلك أن القتل والســـرقة ومداهمـــة النســـاء

والاستيلاء على البهائم وأواني النحاس، لا يتم أبدًا إذا ما ظهرت نجمة الصباح، وكان أبو زيد الهلالي يهتدي بها خلال رحلته من نجد في شبه الجزيرة العربيـــة، حتـــى وسط الصعيد، وأن متاعب أبو زيد الهلالي بدأت حينمـــا اتجه غربًا إلى تونس الخضراء، لأن سماء تونس لـــيس بها نجمة الصباح.

وحينما استطعت في المرة الخامسة أو العاشرة أن أتوغل أكثر وسط الحقول، مخترقًـــا تلـــك المســـاحات الساحرة من حقول القمح أوائل الربيع، أي حينما جلست على شط البدرمانية – تلك الترعة المؤدية إلى بني حرام والدرمان وأسمو العروس – كانـــت قريتـــي كلهـــا قـــد وضعت رأسها على وسادة الصمت، والأزيـــز النـــاعم للحقول يبث في الجوانح خوفًا دقيقًا ومرعبًـــا... وكنـــت سعيدًا..

وفي البدايات مر رجلان، كـــان يحمـــلان شـــباك الصيد، وألقيا بالسلام، فرددت السلام بصوت صبياني – طفولي – واضح، فتوقفا قليلاً، في صـــمت، ثـــم عبـــرا

موقعي في سرعة، وكنت على يقين أن إبليس لــم يكــن فيهما، نعم إبليس، فقد عرفت أن إبليس لا يظهر برفقــة أحد، إنما هو يأتي بمفرده، كما أنــه لا يخــاف إلا مــن سماع آيات القرآن الكريم، وكان أحد الرجلين قد انهمــك – خلال عبورهما – في تلاوة الآيات المقدسة، فأسعدني أن يعتقدا أني أنا إبليس، وكان هذا في حد ذاتــه مثيــرًا لأفكاري، ذلك أن مجموعة المعلمين الذين قاموا بصياغة هذه المرحلة من حياتي أخطروني مرارًا بصفة شخصية وبمفردي أو في جلسة مليئة بالبشر: في الكتاب أو فــي بيتنا أو على المصاطب أو في آخر ليــل المــأتم – أن إبليس وراء كل شر، وأن إبليس من أهــل النــار، وأن إبليس هو الذي أودى بآدم وحواء إلى النهايــة الشــائكة هبوطًا من الجنة الجميلة إلى الأرض اللعينة..

هؤلاء المعلمون كانوا أبي وأمي وخالي – انظــر المدرسة الأولية – وسيدنا وأصحاب القدرة على القــص وإزجاء الحكايات والأغاني والمواويــل، وكلهــم كــان يصفني بأني إبليس، فلما عرفت تاريخ إبليس هاج بــي

الشوق أن أراه، ولم أكن مستعدًا أن ألتقي به في الخرابات والبيوت الخاوية والمقابر، ذلك أن الذي قام به إبليس كان في الجنة، ولا بديل للجنة سوى هذه الحقول الممتدة أمامي، والتي بدأت آلف الجلوس على حاجز أو شاطئ ترعة فيها، وأظل أرقب النجوم حتى يبدأ إحساسي – كالتنميل – يجعلني أترقب، ونادرا ما كان يمر بي – خلال هذا الظلام المنير – رجل بمفرده، وكنت أرقب المارة، هؤلاء الذين ما يكادون يحازونني، حتى يلقوا بالسلام، ثم تبدأ آيات القرآن الكريم تندفع في تلعسم فأحس – من جديد – بالسعادة القصوى، وتظل قريتي – هناك في الأفق جاثمة على عتمتها، ثم – في حالات قليلة لكني أذكرها جيدًا – أفاجأ بعيون تتلألأ من وسط نبات (الساسابان) وغابات الحلفا، ومسطحات النباتات القصيرة، قط بري أو نمس أو ثعلب، ذات مرة فوجئت بذئب واضح المعالم، داهمني الرعب لكنه ظل ممعنًا – بعيونه النارية، ثم ظل ثابتًا وسط الحشائش، كانت الحكايات قد علمتني ألا أجري أمام أي حيوان –

أو إنسان – فسوف – يطمع في التهامي، وأحسن طريقة هي الثبات، ولم أكن أملك سوى الثبات، كنت مشلول الحركة، وظل الذئب واقفًا، ثم فجأة تراجع للخلف، وبدأ يتقافز في الحقول، هل سمعت عن ذئب هاجم إبليس؟؟

ثم يزيدني متعة أن شهابًا مضيئًا ينطلق في السماء، كنت قد اعتقدت أن الشهب التي تخترق السماء بنور لامع وتتلاشى هي رصاصات منطلقة من منطقة بعيدة، ثم عرفت أنها صادرة من نجوم تدرأ عن نفسها هجوم الشياطين، ثم قالت لي واحدة من أشهر ندابات الجنائز أن الشهب هي إعلان لانتصار الموتى ضد الشياطين، وهناك (عدودة) أي نص في مراثي الميت الغالي تقول:

إيش جسر الغاسل ومين قال له
شهاب منور دخل قلبه
إيش جسر الغاسل ومين وراه
إبليس ما يقدر على اللي كان وياه

والمعنى أن الغاسل – القائم بتغسيل الميــت رأى الشهاب يدخل قلب الفتى الــذي مــات، لأن إبلــيس لا يستطيع أن يهيمن على واحد مثله. ثم بعد كل ذلك كــان الصمت يصنع هالات من دوائر بين الســماء والأرض، هذه الدوائر الغامضة التي جعلتني أفعلها..

– ٢ –

عندما تحركت إلــى الحقــل المــوازي لترعــة البدرمانية – في تلك الأيام – لم أكن أتحــرك بصــفتي لصًا، لم يكن الأمر يعني السرقة من أي زاوية، كنت قد أحسست أن المكان كله – بصــمته وأصــواته ونســيمه ونباتاته ونجومه – يخضع لي، وأن الواجب يفرض علي أن أزداد متعة، حيث ظللت أتحرك وسط الحقول حتــى وصلت إلى بوادر حقل أولاد الجمل، طماطم، نعم، كــان أولاد الجمل قد أثــروا ثــراء عظيمًــا بســبب قيــامهم باستزراع الطماطم في مساحة محدودة من تلك المنطقــة ذات المساحات الواسعة، والتي تهيمن عليها قريتنا، فقــد ظلت قريتي – ديروط الشريف – وهي من أكبر قــرى

مصر – لا تحبذ زراعة الطماطم والثوم والفجل والباميا والفاصوليا، كانت الزراعات التي برعنا فيها هي القمح والذرة – بأنواعها – والسمسم والفول، وكانوا يتركون غير ذلك من زراعات لقليل الشأن من صغار الفلاحين، وكانت قرية بانوب القريبة تزرع البطيخ والشمام وكيزان العسل والطماطم والفجل والجرجير والثوم وباقي الخضروات، وبسبب ذلك كنا – ونحن نساوم في شراء البطيخ أو الطماطم – نتعالى على أهل بانوب، ثم قام أبناء عائلة الجمل بزراعة الطماطم زراعة واسعة في زمام قريتنا بعد أن كانت هي وإخوتها من خضروات لا تزرع إلا على هوامش الحقول، (الآن تزرع قريتي كل أنواع الزراعات)، فما كدت أصل – في تلك الليلة إلى بوادر حقول أولاد الجمل حتى تلمست – في الظلام – ثمار الطماطم، لم أكن مدربًا بشكل كاف، ولذا فقد قطفت عدة ثمرات، اتضح لي – حين تذوقتها – أنها خضراء مريرة كانت ثمة ثمرة واحدة من الطماطم ناضجة.

بعدها أصبح مهما – غاية الأهمية – أن تـــتلمس أناملي بدن الثمار، وتتحسسه في رفق حتى تتيقن من أنه ملمس ناضج، كان ذلك يأخذ وقتًا مرهقًا حتـــى تكــون أغلب حصيلة الاستيلاء ناضجة تصلح للالتهام، لكني – بعد عدة فصول – بدت أصابعي تعرف الطريق مباشرة إلى الثمرة الناضجة دون النيئة أو الخضراء أو الناضجة نضوجًا كبيرًا يقربها إلى أن تكون معطوبـــة أو فاســـدة، هي مرة أو مرتان كل أسبوع، أهيم فيها حتى أصل إلى حيث أجلس ثابتًا، أداعب النجوم والقمر أحيانًا كثيـــرة – والضوء اللامع السريع للبرق، وللشـــهب، وأرد الســـلام على العابرين النادرين، ويكون الأمر قد اســـتوى فـــي صدري، فأحس بأن الثمار تدعوني، فـــأخترق القنـــوات وأشواك الأسوار، لأقتطف تلك الثمار التي أجلـــس فـــي هدوء لألتهمها، ثم بعدها: أقتطف الثمار التي أمـــلأ بهـــا حجري، كي أعود إلى البيـــت قبـــل أن تغـــرب نجمـــة الصباح، طماطم، وخيار، وقثاء (في بلدنا يطلقون عليها العجور)، كوسة وفول أخضر وفاصوليا وبسلة (بـــازلاء

بالفصحى)، وعندما كانت الحقول تخلو من الثمار كنت قد بدأت أتسلق أسوار حدائق الفاكهة وراء بيوت المعاوضة: الموز والبرتقال، واليوسفي، لكن الأمر – بالنسبة للحدائق واجه مشكلة مرهقة، فقد قفز كلب ورائي في ثغرة السور، وجذب بأنيابه جلبابي من الخلف فمزقه، لكني مرقت في الحقول المجاورة مرعوبًا، كان واضحًا أن إبليس قد اندفع جبانًا إلى ثغرات السماء، كان الظلام حالكًا دون نجمة واحدة.. لقد نمت بعدها طويلا في منزلنا..

وحينما كنت أعود – من تلك الجولة الليلية – في الحقول، وأدوس على باب بيتنا الذي لم يكن يغلق أبدًا، وألقي بحمولة حجري من الثمار، كانت أمي تقوم مفزعة وتسألني – في تصميم من يسعى إلى الحلال – عن مصدر ذلك، وكنت أفرط في حكايات عن العيال الذين أصحبهم إلى حقولهم فيمنحوني مما وهبهم الله، لكن أمي بدأت تتعود أن تجد كومة الثمار بجوار الحائط، فتسألني عن مصدرها دون جدية في السؤال، أو دون انتظار

إجابة، ثم بدأت تهمل السؤال من أساسه، وحينما كانــت مدة عدم التحصيل أو إحضار الثمار - تطــول، كانــت تسألني عن سبب هذا التقصير، والذي كان يطول أسابيع، ولم تكن أمي تحب أن أعود إليها بالبلح، أولا أن في بيتنا سبع نخلات مثمرات، وثانيًا لأن البلح يحتاج إلى تســلق النخيل، وفي الليل يصعب قيامي بذلك بعد أن داهم ثعبان كبير خبير تطليع النخل في عز النهار، كمــا أن رجــم النخيل بالطوب ليلا غير مستحب ويفضح من يقوم بهــا، مما أدى بي أن أحاول اختراق حقل باذنجان أسود، هــذا الذي لم أفكر في الاستيلاء عليه من قبل، لكــن الأمــر انقلب فوق رأسي، فقد فوجئت بعفريت شرس يطلــع - فجأة - من بين نباتات القطن، كان عاريًا تمامًا، وكــان ضوء السماء قد كشف عن بقع الطين التي تمــلأ هــذا الجسد العاري، حينما مد يده إلى جسدي متشبثًا: أنت ابن مين؟؟ واندفع إبليس تاركًا جسدي لأفاجأ بنفسي مجــرد صبي يبكي ويصرخ: أنا ابن أحمد أبو مستجاب، آه أنت خالك الناظر؟ وتركني..

وظللت أتقلب في فراشي – تلك الليلة – مرعوبًا، كنت قد أخطأت في عدم استعمال آيات القرآن الكريم لتبطل وتشل حركات العفريت، وهذه الآيات التي جاءت مندفعة وأنا أمثُل بين يدي سيدنا الشيخ محمد عثمان صباحًا حينما همس لي وعيونه في عيوني: أين كنت الليلة..؟؟

وأيقنت أن الطامة الكبرى قد وقعت وأن العفريت قد أبلغ سيدنا، فانهمكت في الصراخ الباكي، والذي أقسمت خلاله أنني لم أغادر فراشي، لم أغادر فراشي منذ خرجت من الكتاب أمس حتى صباح اليوم، وهو ما أكده أبي وأمي حينما توجه الألفة لسؤالهما، كما أكده كل أخوتي البنات.. ولما ضغط الألفة أقسم له أبي يمين الطلاق بأني لم أغادر البيت وإلى يوم وليلة أمس، حينئذ، وبعد هذه الواقعة، وما أثير حول لصوصيتي، ظللت مهمومًا بسبب إبليس – أو من أجل إبليس، هذا الذي أسقطني من جنة الحقول كي أظل شهورًا في جحيم المنزل وشوارع القرية، لماذا لم يستطع حمايتي؟ لكن

الأمر لم يدم طويلا، فقد بدأت حقول الطماطم والخيار تشيع في الجو أريج المتعة أن أمتلكها..

وكان مناسبًا أن أسترد علاقتي بإبليس بشروط جيدة مناسبة للنهار قبل الليل.. تاركًا أمر الليل لمتعة انطلاق الخيال الذي لا يصلح فيها إبليس بالمرة.. ولاسيما أن الأمر قد بدأ يدخل في مسائل أخرى مرهقًا أن نذكرها هنا، حيث بدأ الصوت يخشن، وبثور المراهقة تملأ الوجه ببوادر الشارب المخضر يحاول الظهور في عنفوان الليل، وهدوئه أيضًا..

سلامًا على الحاج محمود

انتظارا للغرباء

●● فجأة، ودون أن يتدخل أحد، اكتشفت أمرًا مذهلا، داهمني، وحطم قلمي، ثم مزق أوراقي، وألقى بها قصاصات متناثرة فوق جسدي العاري المرعوب.

كل أبطال قصصي ومقالاتي في الأحقاب الأخيرة مصابون بالعقم.

أعوذ بالله.

وهو أمر مرهق ويخنقني، ويحول بيني وبين حرية الحركة، وذكاء الإشارة، ودفء المعاني، ولاسيما وأنني كنت قد بدأت أعد العدة للكتابة عن الحاج محمود، الكريم، الجدع، المضياف، الصبور، التقي الورع، هذا الذي كان النسيم يبتسم له، والأخلاق الكريمة تمرح فوق أكتافه، الهادئ الذي لا يفوته فرض في الصلاة أو الزكاة أو التصدق أو انخفاض الصوت، أو الابتسام للأرامل، أو مسح رأس العيال، ثم إن الحاج محمود أدى فريضة الحج مرات: المرة الأولى مع زوجته الثانية، والمرة الثانية مع جمعية مراعاة الأخلاق القويمة، والمرة الثالثة بمفرده، ولا يخفى على أحد أن الرجل

تبرع مرات للمسجد ولمقام الشيخ محمد الصباغ، هذا الشيخ العظيم الذي رأيته يسير في طرقات القرية وقد أفاض على جسده بالخلاخيل والعقود والأساور والحلقان، نعم: كانت الحلقات المعدنية تخترم الأذنين ومداخل الأنف والبارز من الخدود، وكنا جميعا نحب الشيخ الصباغ وهو يدب في الطرقات بصوته المشابه لبداية نطق الأطفال، وحذائه الضخم المصنوع من رقاع الجلود تشع بالضوء " قبل أن يظهر الحذاء الحديث الذي يعلن عنه في التليفزيون الآن"، حينئذ جاء الشيخ الصباغ إلى الحاج محمود في المنام، كان يرتدي ملابس شاهقة تشع بالأبيض الملائكي، ثم غاب فترة، وجاء مرة أخرى إلى الحاج محمود في المنام وقالها له صريحة: أصبر يا مؤمن أصبر يا مؤمن، وفور أن استيقظ الحاج محمود من منامه عرف الخبر: الشيخ الصباغ صدمته حلزونة زكي أبو فراج ومزقت جسده المتألق بالمعادن، وكانت المرة الأولى التي يخرج فيها الحاج محمود من بيته عاري الرأس والصدر، صارخاً، مع السلامة يا سيدنا، مع السلامة يا سيدنا، وهرع إلى موقع الحادث ملتاعًا لكن الناس أعادوه إلى بيته منهارًا.

كنت أتابع الحاج محمود في الغدوّ والرواح والمساجد ومواقع ذكر الله، في السوق وزوايا الصلاة وأركان فعل الخير سرًا حيث لا تعرف يمينك ما فعلت يسارك، أتابع الحاج محمود على حصانه ووسط جيرانه، وبين مستعمرات أغنامه وجماله، وهو يدخل المأتم فيهب الجميع وقوفًا حتى قارئ القرآن الكريم الذي تحميه الأعراف من الوقوف، وهو يقود موكب التأييد والولاء والمبايعة، ثم وهو يتهادى – هادئًا رصينًا – أمام جنازات وداع الأحبة والأصدقاء، لا يبكي ولا يصرخ ولا ينبش التراب – وجلا – فوق دماغه.

والمصيبة الكبرى، أنني، وأنا ألاحظ الحاج محمود، لم أنتبه أبدًا أنه غير منجب، أي أنه عقيم، وأنه بذلك قد انضم إلى أبطالي، دون تفريط في حق الرجل أن يبحث لنفسه عن حل، هذا الحل الذي – نعتقد – أنه بدأ بظهور الشيخ محمد الصباغ في الحلم، حتى أنه الحاج محمود – فيما قيل – بكى بين يدي الشيخ الصباغ، وأن الشيخ الصباغ كان غاضبًا، وظل بيديه القصيرتين المجللتين بالأساور والخواتم والدوائر النحاسية – يضرب على دماغ الحاج محمود حتى كاد يدميها، أدماها فعلا وسال الدم على الوسادة.

والذين اهتموا بالموضوع – معظمهم من الورثة – أكدوا الأمر، وهمسوا بأن الحاج محمود وقع مرات في براثن المدعين والمشعوذين والدجالين، وأنه فقد نقودًا وغلالا وجمالا وخرافًا تحت ظلال دخان المباخر ومناقد "جمع منقد" التهاب عظم الذرة الشامية مع المستكة والملح والكبريت الخام وزيت المحاشم "منطقة المخاصي" وماء الورد وخشب الصندل، وأن الحاج محمود أقنع ابن عمه – ذات مرة – أن يطلق زوجته المنجبة ليقترن بها، وأن الحاج محمود صبغ ظهر زوجته الثالثة بالحناء والقرظ ومزيج صفار البيض مع تمائم الحبر الزفر "وليس صحيحًا" أنها قضت عمرها مريضة بسبب ذلك بل لأنها أصيبت بالجرب المزمن، ثم كان ما كان من زوجته الرابعة التي استطاعت أن تنقذ الحاج محمود من مصير أبطالي: الانتحار أو الموت كمدًا أو الانسحاق تحت مباخر المشعوذين.

فقد حملت الزوجة الرابعة للحاج محمود، حملت أي حبلت وتكور بطنها ليشيع في الرجل المؤمن إحساسًا دافقًا بالحياة، لينتشي وتعتدل قامته، ويعود إلى حصانه يمتطيه في قفزة واحدة، ثم لم يلبث الشعر الأشيب – أو الشايب – أن

تساقط شعرة شعرة، كلما تضخمت بطن زوجة الحاج محمود، عاد الشعر الأسود ليحتل موقعة الأثير في رأس الرجل الكريم، هذا الذي زاد كرمه أكثر، ووصل عطاؤه إلى درجة تأثيث كل مساجد وكتاتيب المنطقة من جديد.

غير أن مسألة التأثيث توقفت، ففي الشهر الخامس أو السادس نزفت العزيزة لسبب غير معروف حتى الآن، ثم انتهى الأمر إلى ما يجب أن ينتهي، والحمد لله أنها "جاءت سليمة"، فأخفى الحاج محمود غضبه ونكده وحاول أن يتظاهر أنه سعيد جدًا، وغير مهتم بما أشيع من أن شيطانا داهمها في عز النوم، لا يهم، وظل هكذا حتى تكور بطن الزوجة الرابعة من جديد، وحرص الرجل على تنظيف المنطقة المحيطة ببطن زوجته من الشياطين والعابثين والكارهين، غير أن الأمر هذه المرة لم يصل إلى الشهر السادس أو الخامس، فقد جاءت طبيبة تعزي في بنت أخت الحاج محمود التي رحلت نتيجة سوء استخدام سلك الكهرباء، ماتت وهي واقفة، وكشفت الطبيبة الحكيمة على البطن المشار إليه، ولم تتكلم، ولكنها دعت الحاج محمود لتحادثه على جنب: الحمل مجرد انتفاخ، حمل كاذب.

أصبح ملائما الآن أن يظهر الشيخ محمد الصباغ في المنام من جديد، كان يطير في الهواء حينما سحب الحاج محمود معه إلى أعلى وتركه يسقط، أعوذ بالله، ثم بعد ذلك بعدة ليال أخذه في أحضانه وظل يرقص به حتى ألقاه في مقابر النصارى، أعوذ بالله، وفي اليوم التالي مباشرة جاء الشيخ الصباغ إلى الحاج محمود، لم يأته في الحلم، بل جاء يسعى بحذائه الغليظ الرقيع المضيء، وأطنان السلاسل والخلاخيل التي تحيط بجسده الغليظ، جاءه في عز الضهر "نعم عز الضهر وليس منتصف الظهيرة أو أوج الظهر" جاءه في عز الضهر وهو جالس أمام الباب يتهيأ للدخول إلى بيته في القيلولة "اتقاء للقيالة" كان الشيخ محمد الصباغ قد مات منذ سنوات، وكانت القرية قد اعتمدته شيخاً أثيرًا فاعلا ومؤثرًا لتضيفه إلى قائمة الأولياء الفاعلين المؤثرين المحبوبين، وكاد الحاج محمود – حين رآه – يغشى عليه، لكن الشيخ محمد الصباغ مدّ ذراعه القصيرة لتستريح كف يده على دماغ الحاج محمود المضطرب، خمسة غربان يا حاج محمود، خمسة غربان سليمة لا جراح فيها، عليها أن تنحب وتقوق وتنقنق بين وركي زوجتك خمسة أيام كاملة،

ذلك أن الجزء الأسفل من زوجتك يقيم فيه عفريت ملتاث أحمق، ونقطة الضعف فيه أنه يهاب الغربان، سيأتيك الولد الذكر بإذن الله فلا تتوقف عن فعل الخير، الله أكبر، وصرخ الحاج محمود، وحمله أهله من خارج الدار إلى داخل الدار، وكاد لا ينطق أيامًا حتى استعاد نفسه.

***

كان الطلب بسيطا، إذ أن القرية تعجّ بالغربان، وهمس الحاج محمود – في حسم – بما رآه من الشيخ محمد الصباغ إلى أولاد عمومته، كان الأمر واضحًا لا يحتاج إلى جدل، فقد سبق لنا مواجهة أنواع متعددة من الشياطين والأبالسة، شيطان – ذات مرة – لجأ إلى ثدي بنت قابيل فتم استئصال الثديين ودفنهما مع جسد البنت قبل نهاية النهار، وإبليس سكن في رقبة بنت الفخراني مما جعل حنجرتها تفرز أنغاما داعرة أثارت رقصات الشباب، وقد هجرت القرية كلها بعد أن رفضت العلاج، وشيطان في بئر السوق – وهي التي التهمت ابن البطران، ولا ننسى العفريت الذي كمن في زرعة إبراهيم بخيت وأشعل فيها النار، كذلك كان الشيطان الذي لبد في قلب كتب زكريا أفندي جعله يتكلم بحب وعشق

عن مذاهب كافرة يقال لها الوجودية، وعندما قررنا علاجه اتضح لنا أن الرجل لا يعرف ما نعرفه عن قدرات المشايخ والأولياء والقديسين، وقد نقله أصحاب الشأن إلى مناطق أخرى لا نعرف عنها شيئًا.

وبناء على تعليمات الشيخ محمد الصباغ – التي جاءت حية دون منام – ساح أهل الحاج محمود في البقاع بحثًا عن غربان سليمة، وأول ما اتضح أن المبيدات والغازات والمواد المستعملة في نهضة الزراعة قد أبادت كل الطيور، وبالذات الغربان، وعرفنا أن الغربان لا تزال تعيش على الحافة بين أطراف الوادي وبداية الصحراوات الشرقية والغربية، وقريتنا بعيدة عن هذه المواقع، فقامت الوفود إلى هذه النواحي لتنفق وترعى حسن التنفيذ، وبعد أسبوع جاء غرابان من نجع بعيد، وبعد أن حصل صاحبهما على مائة جنيه كاملة، اتضح أن واحدًا منها مصابًا تحت جناحه، وبعد يومين جاء غراب من قرية أخوال الحاج محمود، وكان شرسًا مشاغبًا ذا صوت متشائم، لا يهم، ثم جاءت ثلاثة غربان من جنوب البلاد لكنها كانت أفراخًا صغيرة لم يكتمل ريشها، واتفق أن تكمل هذه الأفراخ نموها تحت هيمنة زوجة

الحاج محمود، هذه المرأة الأمينة التي لم تلبث بطنها أن انتفخت، وبدأت تشكو من الوحم، وتشكو من خبط أقدام الجنين، وتشكو من انغلاق شهيتها عن الأكل، وتشكو من ظهور كتاكيت في أحلامها، مما يعني التفاؤل الكامل الذي يربط بينها وبين الغربان، ثم بدأت تشكو من رغبتها القوية في التهام الكتاكيت، ورأوا أن يقدموا لها نوعًا من الكتاكيت النامية التي تسمي " البلالين " تكون قد فارقت مرحلة الكتكتة إلى مرحلة النمو المؤدي للدجاج، لكنها صممت أن تأكل الكتاكيت التي هي كتاكيت دون أي تحوير، وجاءت الآراء المدروسة تنص على أن لحم الكتاكيت غير حرام، ولا يوجد نص يحول بين زوجة الحاج محمود وتنفيذ طلبها.

* * *

في الوقت نفسه كان القفص الكبير المركون في مدخل البيت قد حظي بستة غربان، ألقوا بجثث ثلاثة أول أمس، ثم قام اثنان بتمزيق جسد الغراب السادس، لا يهم، آخر النهار جاءت غربان أخرى من بحري البلد، ومن بيوت أصحاب معامل الكتاكيت، ومن تجار البيض، وتم عزل كل غراب يأتي في قفص مستقل حتى لا تتآمر على بعضها،

واتضح للجميع أن الغراب طائر متــوجس خــائف شــكاك، لا يقع في الأسر أو في شباك الصيد بسهولة، وأنه لا يستقر على أرض أو على غصن إذا مــا رأى شــبكة أو بندقيــة أو ملابس ملونة، وأحضر الشيخ محمود واحــدًا مــن أولاد العائلة الذين أصابوا حظًا في التعليم وأجلســه أمــام الــدار، الغراب الكبير السليم بمائة جنيه، ثم تهبط الأسعار كلما حاق بالغراب إصابات أو شيخوخة أو طفولة، وكان ذوو الحظ في الحصول على غربان يقفون طوابير لحــين الانتهــاء مــن الفحص وتقدير السعر المناسب، ثم كانــت تلــك الفضــيحة الصغيرة حينما اتضح أن بعض الغربان لم تكــن غربانًــا: كانت سمانًا أو دواجن أو فرخ صقر أو بلــبلا: أو عنــدليبًا أو يمامة أو أبا قردان أو أبا فصادة أو عصفورًا أو أي طائر يمكن صباغته باللون الأسود، وجاءت لجنة للفحص وتقــدير أجورها عن الفحص، وتكور بطن الزوجــة أكثــر وبــدأت تهرش في ثدييها وسرتها وفي مؤخرتها، وكانت الغربان التي هي تصلح لاستخراج العفريت من بين وركيها قد أصــبحت أربعة.

أما باقي الغربان فقد أثارت المــرح فــي القريــة، وعادت إلى عنان السماء والشجر، حيث تم اصطيادها مــن جديد وإعادة صباغتها.

والحاج محمود لا يزال، يدفع لمن يصيد، ويبتسم في وجه من يرى له حلمًا، ويهش في وجه زوجته الصبورة أن لكل شيء نهاية، وينظر إلى الغربان في القفص فيتضح أنها ماتت وتحولت إلى جثث.

لكن الأمل لا يزال قائمًا، وعلى زوجتــه الطيبــة أن تسترخي على مقعدها، وأن تتحدث عن حلمها، وعن وحمها، وعن آخر من زارها من المحبين.

فقد جاءت ثلاثة غربان جديدة، ورأت اللجنة ألا تدقق كثيرًا في صحة المواصفات، ولاسيما وأن الحاج محمود قرر زيادة المكافآت للباحثين والصائدين والمدققين والذين يرعون الغربان داخل البيت، والذين يحملون جثث الغربــان لــدفنها خارج البيت.

كما أن الحاج محمود، تطييبًا لخاطر زوجته، وتيمناً بزيارات طيف الشيخ محمد الصباغ، بدأ يحتفــل – بالطبــل والزمر – مع وصول الغربان الجديدة.

ومن أيام قليلـــة انضـــمت للاحتفـــالات الغـــوازي والراقصات ومثيرات المتعة.

والحاج محمود يداعب الضيوف ويمسح على رءوس الغربان، ويدعو للجميع بحسن تحقيق الآمال.

وزوجته جلست على الأرض مرتكزة بظهرها على الحائط، وقد أتاحت لفخذيها استرخاء، ووركيهـــا ارتياحًـــا، حينما مدت أقدامها للأمام، وعيونها ترقب أربعـــة غربـــان مكسحة تتخابط بأجنحتها ... في انتظار الغراب الخامس.

تحت ظلال ... الأسئلة!

●● كل هذا الجمال الممتد في البراري والحقول – و على شواطئ الإبراهيمية " ترعة معروفة وليست طريقة صوفية" أثمر في نفسي – مع قليل من اليوسفي – أنواعًا عديدة من الأسئلة ذات الوجه المضيء "بغض النظر عن وجه الإجابة عنها" ثم لم تلبث الأسئلة أن تخلت عن شكلها المدرسي وبدأت تتوكأ على عكازات "جمع عكاز – وصحتها عكاكيز" الاندهاش أو الاستغراب أو الضيق أو الاختناق، أحسست – عندئذ – أن الأسئلة لم تعد تطلب الأجوبة، بل ولم تعد تطيق الإجابة، وأن الجمال – الذي أشرت إليه – ابن عزيز للحرية التي يشير إليها الجميع، وأنني أستطيع إطلاق ما في النفس هواء طلقًا دون اهتمام أن يكون ذا رائحة من نوع روائح دخان معامل الكتاكيت أو قمائن الطوب أو مصانع حديد وصلب أسوان أو مباريات الفرنسي جيلي، سوف يكون ضروريًا أن أضع حكايات المصانع الوهمية للمشروعات الوهمية الخاصة بالحديد والصلب في أسوان "والملايين التي تم نهبها" مع حلقات مسلسل المدرب الفرنسي الرياضي جيلي بآلاف دولاراته الشهرية، في طريق إفساد

البيئة النفسية ذات القلق العارم، الذي يجعل الجمال الممتد في البراري والحقول وشواطئ بحر يوسف – مع قليل من اليوسفي – نموذجا طيبًا للعذاب الأليم المثير للسخرية والرغبة الشديدة في قطع الطريق، إنه الوقت المناسب أن ألقي بالقلم الآن كي اختطف خروفًا أو نعجة أو دجاجة وألوذ إلى الجبال.

لكن الأمر أصبح – فور ذلك – أكثر جمالا وتعقيدًا وسخرية، إذ أن مواصفات قطع الطريق أو اختطاف الماعز والدواجن واللجوء للجبال لم تعد مناسبة لي، إذ لا بد أن أتخلى عن الأقراص الدقيقة "الدينترا والفيللين" الموسعة للشعب الهوائية في الرئتين اتقاء للذبحة الصدرية، وأن أراعي استعمال مخفضات أو مذيبات الدهون أثناء التهام أوراك المنهوبات من الجديان والأغنام والدواجن والكتاكيت، وأن أصغي جيدًا لتعليمات التوقف عن التدخين، قل لي يا صديقي: كيف يمكن أن تقوم بتنفيذ ذلك خلال جلستك الرومانسية فوق الجبال وأنت تنظر إلى كل هذا الجمال في الوادي وبصدرك هذا العدد المذهل من الأسئلة – والأجوبة أيضًا ...؟!

فقررت أن أسلك طريقًا أخلاقيا آخر أقل حدة وأخف حملا وأنقى سريرة، زرت مريضًا جاء بعد غيبة ثروة في الخليج، وحقدي على أصحاب الثروات – دعك الآن من بهجت حديد أسوان وجيلي مدرب الكرة – جعلني أنظر إلى ما يمتلكونه بأنه لعنة وعقاب من الحاسدين تنتهي في معظم الحالات إلى أنواع مروعة من المرض أو الثكل "فقدان الأعزاء" أو الغيبوبة أو القلق النفسي العارم، وبعد أن زرت المريض الثري توجهت إلى المدافن فقرأت الفاتحة على قبر أمي، كان الجو صامتًا بالغ النقاء مما أتاح لي أن أجلس وقتًا على الحائط المقابل وأن أتحرر قليلا من تعليمات أطباء التدخين، ومع الأسف فقد قرأت الفاتحة لحساب أمي دون أن أنتبه انتباهًا أخلاقيًا إلى أن أبي ينام في المقبرة المجاورة، ثم تجولت في قريتي "ديروط الشريف" مراعيًا عدم التجاوب مع دعوات احتساء الشاي المتوالية، والتي كانت تتألق ابتسامًا وفرحًا لأن أهلي شاهدوني في التليفزيون "القناة السابعة" وقد احتضنني محافظ أسيوط: أحمد همام، في سعادة بالغة التألق خلال الاحتفال بمرور عام كامل على صدور جريدة "أخبار أسيوط" – مع تكريمي – المتألق أيضًا – بصفتي من أبناء

الإقليم، وبعدها توجهت إلى بيت ابن عمي حيث وجهت لـــي زوجته نقدًا أو عتابًا أو لومًا لأنني ظهرت فـــي التليفزيـــون "بالجلابية البلدي" وهو أمر لا يصح ويقلل من قيمتي الكبرى التي لا تتحقق إلا بارتداء البدلة، فأصبح الجـــو مهيـــأ كـــي أخترق الحقول – من جديد – متجهًا غربًا، متفاديًا تجمعـــات الأهل، فظللت أسعى في وحدة رائقة على بقايا فروع جداول الترع، كانت حقول القلقاس تحتل المساحة الأكبر فـــي كـــل الاتجاهات، ونحن الآن في آخر شهر فبراير حيـــث تكـــون زراعات القلقاس قد اندثرت تمهيدًا لزراعة محاصيل جديدة، وقد أجابني عن هذا التساؤل المندهش أحد الـــواقفين علـــى ترعة البدرمانية: كل هذا القلقاس سوف يلقي بـــه أصـــحابه على شواطئ الترع لأنهم لم ينتبهوا لتسويقه في الموسم سعيًا لثروات أكبر، وقد حدث ذلك في سنوات عديدة مـــن قبـــل، فأحسست بالسلوان الشرير يملأ أنفاس سيجارتي لأننـــي لـــم أزرع القلقاس هذا العام، دون الانتباه إلى أنني لا أملك أرضًا أو زرعًا بالمرة، كان واضحًا أن الذي يحدثني لم يشـــاهدني في التليفزيون بين أحضان المحافظ، وبالتالي فقد كان ذلـــك مناسبًا أن نتوسع في الكلام عن بقية المحاصيل والمزروعات

من فول وبرسيم وترمس وقمح، لكـــن الأمـــر انهـــار كلـــه وأصابته القلاقل والغبار حينمـــا داهمنـــا عـــابر ليأخـــذني بالأحضان طالبًا مني أن أتبنى مسألة أخيه، كي أكلم المحافظ ليعيد إليه كشك السجاير والحلويات الذي أزالته الحكومة من أسابيع.

حاولت – بعدها – أن أســتعيد الصـــفاء المفقـــود، تجولت على شاطئ البدرمانية والشمس تخرج لـــي لســـانها الدافئ الساخر، وكدت أنحرف غربًا من جديد لأصـــل إلـــى شاطئ بحر يوسف، لكني أصبحت فاترًا راغبًا في اللجـــوء إلى مسكني متحاشيًا الغبار المثار من الســـيارات والـــدواب والأسئلة والأجوبة وضجيج آلات الري المتناثرة، وحاولـــت إطلاق ما في النفس نسيمًا رقيقًا دون أن يكون ذا رائحة من نوع روائح دخان معامـــل الكتاكيـــت أو جلســـات المحـــاكم أو المشروعات الوهميـــة أو الابتـــزاز أو حكايـــات عائلـــة المدربين والخبراء والسكر المستورد محدود التحلية، أو هذا الصديق الذي التقيت به – آخر الأمر – على رأس الشـــارع الذي أقيم فيه، ليتوسل إلي – بكل ما أملك من فروسية وكرم ورغبة في خدمة المواطنين – أن أحصل له على عقد عمـــل

في الخليج، أمعنت في وجهه مبتسمًا – في بلاهـــة – لعلـــه يدرك أنني أفكر في استدراجه إلى موقع يصلح لعمليات قطع الطرق.

وحملت ابتسامتي البلهاء في محاولة كي أجيب عـــن العديد من أسئلة لم تعد تحمـــل الانـــدهاش أو الاســـتغراب المناسب، لكني لم ألبث أن استغرقت – تمهيدًا لنوم الظهيـــرة – في قراءة كتاب "الموت والوجود" والذي يجيب عن أســـئلة أخرى عن الفناء الإنساني، في ترجمة أستاذنا بـــدر الـــديب للمؤلف الأمريكي جيمس كارس، كي تختنق بعدها الأحـــلام والأمنيات والرغبة الكاسحة أن ألجأ إلى الجبال – على الأقل الآن.

الولد عزيز ... ابن عمي رزق

●● كل واحد مربوط من قفاه، وهذا يعني أن لكل واحد قدره الخاص ذا النهاية الخاصة ولن يفلت، ومع ذلك فإن الربط من القفا يؤدي إلى الإحساس الدائم – والعميق – بالعبودية، أية عبودية؟؟ لا أعرف، إنما هي الدندنات الأولى التي أجد نفسي أعابث بها أوتار مدخل المقال، تمهيدًا لأن أمسك بأول اللحن، ذلك أننا – الواقعون في مأزق الكتابة، نجد أنفسنا دائمًا مجرد أطفال لا نملك سوى النيات الحسنة، والساذجة، نلف وندور كي ندخل الموضوع، الأفكار قائمة لكن الدخول يستلزم صفات غامضة غير معروفة حتى الآن، فنحن أبناء الفلاحين نجد أصداغ مداخل بيوتنا وقد علاها البياض الذي يموج برسومات المراكب والطائرات والكعبة المشرفة مع التنبيه أن صاحب البيت قد زار قبر النبي – صلى الله عليه وسلم – وطاف حول كعبته المشرفة، ورصد التاريخ ضروري، والإشارة إلى أنها الحجة الثانية أو الثالثة أكثر أهمية، ثم تدخل البيت – بعد أن تجتاز المدخل – فتجد الحصيرة ملفوفة في ركن، ومفرش الصوف – في ذلك العصر – مفروط على نصف الفرن، وبين الفراغات سوف

تجد باقي عناصر المكان متناثرة: المخدة، وفردات الشباشب والقباقيب، ووحدات من ملابس معلقة في حبل يقتسم نصف المكان كما يفعل خط الاستواء الإفريقي، وصحون وأطباق وآنية لا ينتظمها مربع واحد، ثم هناك سوف تجد الكانون بجواره وابور الجاز ثلاثة أكواب – أيضًا لا ينتظمها نموذج واحد، الزير وقدرة تصقيع المياه في الركن المقابل – من باب التوازن.

هكذا كان بيتنا، دون أن يحظى بزخارف أداء فريضة الحج، وهكذا كان بيت عم رزق أبو عطية أيضًا، أول بيت في درب النصارى، وكي أكون واضحًا فإن درب النصارى يسكنه بالفعل عدد من النصارى دون مسلم واحد، لكن هذا يعطي انطباعًا – أو استنتاجًا – بأن النصارى – في بلدنا – غير منتشرين في الشوارع الأخرى، أبدًا، إنما الأمر يبدو – اجتماعيًا – كالسلسلة الأيونية في الخلايا، تلك التي رأيت نماذج لها حية عندما كنا في السد العالي، فأي واحد يأتي من قرية في الصعيد يكون رأس حربة لمن يأتي خلفه من منطقتهم، يعملون جاهدين أن يسكنوا في (بلوك) واحد، وأن يعلموا في إدارة واحدة، حتى إن الإدارة المالية في

شركة ضخمة كـ (المقاولون العرب) ظل معظمها من بني سويف، بما فيها معظم إدارات المخازن والتوريدات، لأن أول مدير مالي لها من إهناسيا الخضراء التي اشتهرت في ذلك العصر أكثر مما اشتهرت به الإسماعيلية والعريش بصفتهما الموطن الأصلي لصاحب الشركة، وكل هذا – أيضًا – وارد في كل المؤسسات في بلاد العالم الثالث، وبالتالي فقريتنا مفعمة بالنصارى الذين يقيمون – متناثرين – أو يقيمون في درب واحد، بيت عم رزق كان يفتح بابه الأصلي على أول متر في مدخل الدرب، ويفتح شباكًا على الشارع الكبير، هذا الذي كنت أسلكه حتى أصل إلى الشباك، وأخبطه بيدي مرات، كي يخرج زميلي الأبيض الجميل عزيز ابن عمي رزق أبو عطية.

كان عزيز رزق في وضع عائلي يماثلني، جاء الذكر الأول على خمس بنات، أو أربع، كن كلهن جميلات جمالا أخاذًا، وعندما يخرج عزيز من باب البيت كانت أمه تطلب مني ألا نلعب في (الحتت الوحشة)، وألا نطارد الزنابير، أو نقترب من الترعة، وكانت تنبهني أن نتفادى الجمال العضاضة والحمير الرافسة والكلاب السعرانة، كان عزيز

مؤدبًا لا يسلك طريق الشقاوة الذي اشتهرت به، كما أنه ظل يرتدي جلابيب زاهية ليس من بينها قماش الزفير الـــرخيص – أو النهضة الذي لم ألبس سواه في العشرين عامًا الأولـــى من حياتي – وقد عدت إلى ارتدائه بعد ذلك بسنوات طويلـــة – تفاديا لارتداء ما قد يكون به خيوط صناعية تســـبب لـــي الأذى في جلدي، وعندما كنا نلعب فـــي المدرســـة، أو فـــي الشارع – كان عزيز يقف جانبًا دون لعب تنفيذًا لتوصـــيات متراكمة ومتوالية من أمه وأبيه، مع أن عددًا لا بأس به مـــن النصارى كان يشاركنا هذه الشقاوة التي تصل إلى حد تمزيق الملابس أو فقدها على شواطئ الترع والجـــداول – مـــع أن التنبيهات (الأموية) كانت تتابعنا دائمًـــا بمراعـــاة أن نكـــون مؤدبين.

***

وذات صباح، وكنا ننفث بخار البكور الشتوي مـــن أفواهنا، تدحرجت من بيتنا – القائم خـــارج القريـــة – إلـــى شارعها الكبير، وقبل أن أصل إلى بيت عزيز، تريثت فـــي السير، كان الصباح البارد قد ألقى بالعبوس على عدة وجـــوه تقف، أو تجلس، متناثرة حول البيت، وهو يعني أن ثمة أمرًا

خطيرًا قد حدث، بدا ذلك واضحًا في آهات البخار المندفعة من الأفواه والأنوف برغم طيات التلافيح على الرءوس والرقاب، اثنان من أولاد الحاج عبد العزيز يقفان بجوار الحائط، مندي أبو السعود جالسًا على الأرض وظهره إلى الحائط، علي أبو حليقة – الكريه والمشهور بألفاظه العدائية مع الناس – وقف وحيدًا ينظر إلى الأرض وقد التف بملاءة، أولاد مغاريوس كانوا متناثرين قريبًا وبعيدًا، كان الصباح مختنقاً ذا ملامح كابية.

حاولت أن أستنبئ الأمر دون سؤال، الموت، من الذي مات؟ هل يمكن أن يكون رزق أبو عطية؟ إنه جالس على رأس الحارة، بالتحديد في التفاف حائط بيته مع الشارع الكبير، نعم كان عم رزق جالسًا لكن دماغه كانت بين ركبتيه، يظهر من الرأس عنق يربطها بالجسد، وبين الحين والحين يرفع رأسه وينظر إلى الخلق حوله، ثم يعود إلى دفن رأسه بين ركبتيه.

تراجعت إلى الخلف، أحاول أن أجمع من الملامح والحركة ورمشه العين وانغلاق الأهداب وفحيح بخار الماء من الأنوف والأفواه ما يساعدني على معرفة ما يجري، يأتي

واحد ويهمس في أذن واحد فينبس الثاني بصوت خفيض مكتوم، ولا يلبث هذا الواحد أن يركن جانبًا ممصمصًا شفتيه.

أعوذ بالله ... وبجهد خارق ظللت أثابر في الاستقراء حتى انتبهت إلى ... لا يمكن، عزيز ابن عمي رزق مات، لكن الذي يموت عندنا يظلون يصرخون عليه دون هوادة، والموقع كله – بره وجوه – صامت ساكت ملفوف بملاءة الصباح، لكن الأمر الذي أصبح يقينًا – مع خطورته، ومع استبعاد الموت – أصبح متعلقًا بصديقي الجميل عزيز، والذي – كلما تعرضنا لحكاية سيدنا يوسف الجميل مع نساء منف الجميلات، يبرز وجه عزيز محتويًا جمال يوسف حتى اليوم، فما هو الخطر الذي حاق بيوسف، أقصد بعزيز؟؟ كان محظورًا – أو غير لائق – من العيال أن يسألوا في هذه الأمور، لكن زوج خالتي – الشيخ ثابت – كان يطل من نافذة بيته القريب، والذي ألقى إليّ بالخبر وفمه قد أعوج في مرارة: خطفوه، نعم: خطفوه دون زيادة أو نقصان.

***

بعد ذلك بسنوات اكتشفت – أي بعد أن أصبحت أبًا – أن أقسى ابتزاز للأسرة في الريف المصري، ما قد يكون الأبناء مجال نشاطه، إن الولد الذكر سيظل النقطة التي ترتكز عليها آمال وأحلام وأحزان وطموحات مستقبل الأب والأم عندنا، وليس في ذلك تزيد أن الأم التي تفقد ابنًا لها غرقًا أو احتراقًا أو اختطافًا، يقوم الأب بتطليقها وكأنه بذلك يعاقب المهمل الوحيد، ثم هو يقطع الطريق على مصدر الذكريات، وينتشر هذا بين المسلمين دون الأقباط بسبب صعوبة أو استحالة قبول ذلك سببًا للتفريق في شريعتهم، ومع ذلك كل شيء وارد، حيث ظللت ألف وأدور حول لفظ (خطفوه) الذي أطلقه الشيخ ثابت، من الذي خطفه، ولماذا تم خطفه، ولماذا عزيز بالذات، استحالت الإجابة، وكان التجمع قد ازداد أمام بيت عمي رزق وبدأ كبار السن من الرجال يأمرون الناس بالتفرق والذهاب إلى مصالحهم، وكنت ممن تم طردهم مرارًا.

ما كدت أصل إلى المدرسة مقطوع النفس مغلق الصدر، حتى فوجئت بأن الجميع يعرفون كل شيء، عبد الموجود ... خطف عزيز، وقد أرسل في طلب مائة

جنيه فدية، وكان عبد الموجود هذا أسطورة القرية، أعور ذو قلب من حديد، استخدمته عائلات الشناوية ضد المعاوضة، ثم أوقفت المهازل والمداهمات، وحط السلام بين هذه العائلات، فبدأ عبد الموجود يمارس القتل لحساب نفسه، وكان من ضحاياه اثنان هما أولاد عمتي فاطمة: أحمد ومحمود، الأول أصيب في كتفه وشفي، والثاني اجتاحه العيار الناري بين الوركين فلم يصب بأذى سوى ثقوب الجلباب، وأهم ما في الأمر أن الاثنين من عائلة القاتل، ولم تكن الحكاية قد تطورت حتى وصلت إلى اجتماع كل العائلة – آخر الأمر – ليقتلوه تخلصًا منه، ومن آثار أفعاله في العائلات الأخرى، ذلك أن خطف عزيز ابن عمي رزق تم في المرحلة الوسطى، أي تلك التي هدأت فيها الأجواء بين العائلات المتناحرة.

* * *

تصورت – كنت في السابعة أو السادسة من عمري – أن الشرطة التي كل يومين ثلاثة تداهم البيوت وتغربل تراب الفرن وتجس أكوام التبن والعلف، هذه الشرطة التي تأتي أحيانًا وقد امتطت الجمال وأعوجت ألسنتها وأمرت

الناس بأسلوب فاحش أن يستخبوا في البيــوت، مــع عــدم التفريــق فــي الخطــاب بــين الــذكور والإنــاث: أنــت يا فرطوسة ... يأمرون بها الرجال ذوي الشوارب، كنت قد تصورت أن العمدة المسلم الذي تتبعه أجزاء من غرب وقبلي البلد، أو العمدة القبطي الذي تتبعه أجزاء من شرق وبحــري البلد أو حتى واحد من مشايخ البلد السبعة، ســوف يحلــون فورًا ليكونوا مع رزق أبو عطية، مثلما فعلوا عندما باظــت قضية ممدوح أبو عثمان بعد تعديل أقوال شيخ الخفراء علي أبو عبد الرحيم، حيث جاء الجميع ليقفوا مهنئين، وسط الطبل والزمر، هيئ لي أن الحكومة كلها لن تنــام إلا إذا جعلتنــا نطمئن على ابن عمي رزق، وكان هذا هاجسًا أوليًا أصــبح يقينًا حينما عدت من المدرسة، لأجــد الموقــف كمــا هــو: مجموعة من الرجال منكسي الرءوس يقفــون أو يجلســون قريبًا من حوائط عم رزق، كان عزيز قد قضي كل الوقــت في دماغي منذ عرفت بمسألة خطفه صباحًا حتى عدت آخر النهار، ظللت ألعب معه، وأحاول أن أقنعه أن يبلبط معي في الترعة، أو أن يطارد الغربان، أو يفعل مثل رمزي جاد الذي كان متخصصًا في سرقة بــيض معامــل كتاكيــت ببــاوي

أو نجيب مغاريوس، وظللت ألح عليه أن يذهب معنا إلى السوق أو السلخانة، دون جدوى، لقد كان المكان الوحيد الذي يذهب إليه المدرسة فقط.

آخر النهار باع عم رزق البقرة ووليدها، ثم باع قراريط البرسيم قبل أن ينمو البرسيم، ثم باع عدة عروق خشب، وفي اليوم الثاني جمع له محبون عشرين جنيهًا، كانت النقود أوائل الأربعينات حتى بداية الخمسينيات عزيزة جدًا، وكانت المائة جنيه المطلوبة فدية لعزيزي عزيز الجميل بحساب أكثر من عشرة آلاف جنيه يساوي عصر الدولار الحاضر، ثم تدحرجت الأيام ليبيع عمي رزق أواني بيته (كانت من النحاس في ذلك العصر)، ثم باع إنتاج ستة قراريط قمح – لم تُزرع بالقمح بعد، ومن هنا إلى هنا، في دائرة صعبة وقاسية، وفي اليوم الرابع كانت المائة جنيه قد اكتملت، واستلمها الوسيط ليقوم بتسوية الأمر والعودة بالولد.

***

كان ذلك بعد العصر بقليل، وحيثما همس الوسيط السري بالمكان الذي يحتفظ فيه عبد الموجود بالولد، انطلقت من الأفواه آهات الحمد لله، الولد سوف تجدونه تحت نخلات

الشايبة، وحقول منطقة الشايبة تقف شرسة بالغة الضـــراوة، تقع في سهل بين بحر يوسف وترعة البدرمانية، وطول عمر هذه المنطقة مزروعة قصبًا.

غابات القصب تجول فيها العفاريـــت وأبـــو رجـــل مسلوخة والقرود واللبؤات والتنين الذي قتلـــه مـــارجرجس أو واحد من هذا القبيل، لكننا – مع ذلـــك – لـــم نســـمع أن شخصا واحدًا، كبيرًا أو صغيرًا، قـــد أصـــابه ضـــرر مـــن الشايبة، تلك التي تقف في مركز كثافتها، نخلتـــان عاليتـــان تشيران إلى هذا الهدوء الكثيف الكامن تحتها.

وتحركت الجموع، المسرع والمبطـــئ، والراكـــب، والقافز، والصامت واللاهث، الكل يهرع وسط الحقول، ثـــم اخترقت الجموع حقول الشايبة، حتى وصلت إلى النخلتين.

***

كان المشهد مروعًا.

عظمتان لا تزال بهما بقايا نسيج لحمي مدمم ناشف، وبعيدًا عنهما كانت جمجمة صغيرة، تكاد تبتســـم مـــن أثـــر أسنانها وقد انفكت إلـــى جـــزءين لا يـــزالان ملتحمـــين ...

ولاشيء آخر، سوى حبل صغير مربوطة بـــه واحـــدة مـــن العظمتين، وملفوف في جذع النخلة ...

وانفلت الولد عزيز من خيالي ليرتـــدي الجمجمـــة، ويجلس في التختة المجاورة، ويقف بعيدًا دون الاقتراب مـــن النار ومياه الترع ... ويتقافز معي في السيارات والقطارات والطيارات.

لم أستطع نسيان عزيز ابن عمي رزق حتى اليـــوم، ولاسيما حينما تهمس أمي: كل واحد مربوط من قفاه، أعـــوذ بالله، وهذا يعني أن لكل واحـــد قـــدره الخـــاص ذا النهايـــة الخاصة، ولن يفلت.

نعم لن يفلت ... حتى لو كان الفاعل عبد الموجـــود نفسه، الذي ظل في القرية – بعد ذلك سنوات طويلـــة وهـــو يتمتم: كل واحد مربوط من قفاه.

الحاجة جليلة

●● أنت – ومثلك كثيرون – لم تـروا الحاجـة جليلة، مع إنكم تعرفونها، أو تدعون أنكم تعرفونهـا، كانـت رؤيتكم للحاجة جليلة سوف تصبح عاملا مؤثرًا في اختصار كثير من اللف والوصف والدوران والتدليل وإشعال النار في جماليات الفم والعيون والخدود، كي تروا جمالا نادرًا ما ينمو في القرى، نوع من الجمال قد يولد تحت نغمات كمان وظل زهور وتغريد بلبل، غير أنه – هذا الجمال – نما هذه المرة وراء جدران غليظة غير مستوية، تخشـى أن تتـواءم مـع أصداغ الباب فتنبعج، مثل امرأة غليظة تحمل مقطفًا غليظًـا وعيونًا غليظة وكلمات غليظة، ثم إن الطابق الأول القصـير لهذا البيت الغليظ يحمل الطابق الثاني – أو الأكثـر أهميـة، حيث ينساب هذا الطابق دون أن يكون غليظًـا أو قصـيرًا أو منبعجًا، ينساب في أناقة بنافذتين كتلك التي تميز بيـوت منطقة الحسين في القاهرة، ووراء واحدة من هـذه النوافـذ كانت الحاجة جليلة.

أنت – وأي واحد – لن يرى الحاجـة جليلـة فـي الشارع ... كنا نراها ونحن عائدون من مدرسة النصـارى،

نلقي بالنظر الممعن إلى النافذة المغلقة، فنرى الحاجة جليلة شبحًا كامنًا وراء الشيش، وكنا نعلم أنها ترانا وتبتسم، لقد ظلت مشهورة بابتسامتها الوديعة، والتي قال فيها أحد الشعراء بيتين أو ثلاثة فربط تقوس حواجبها مع انفراجة شفتيها مع تألق العيون الواسعة المشعة، وكان واضحا أن ثمة خللا في اتزان الأبيات حال بينها وبين الانتشار، ولاسيما أن الشاعر – أصلا – لم يكن من القرية ذاتها، لكننا – ونحن ننظر إلى النافذة – كنا متأكدين أن الحاجة جليلة ترقبنا، وتبتسم، وأنها تحب أن ترانا عائدين من المدرسة، وأنها تعلم أيضًا أن الشاعر الذي قال فيها أبيات الشعر لم يتناول وجهها فقط، بل غادر العيون والحواجب والخدود والشفتين والذقن ذات الغمازة إلى مناطق أخرى في الجسد، بعدها لم نعد نسمع عن هذا الشاعر خبرًا: لا هو ظل في قريتنا، ولا عاد إلى قريتهم حتى اليوم.

وأول ما نود أن نؤكده هنا أن الحاجة جليلة كيان طيب – وبالغ الطيبة، لماذا استخدم كلمة (كيان)؟ لأن الحاجة جليلة ليست بنتًا في العاشرة أو العشرين أو حتى الأربعين، إذ أنني أراها في هذا الموقع من النافذة منذ أن كان أبي شابًا

يسحبني من يدي ليشتري لي حلاوة، كما أن الحاجة جليلة ليست امرأة، إذ أنها – وبالتأكيد – لم تتزوج أبدا، ولم نسمع أنها خطبت أو تم فسخ خطبتها، كما أنها – وبالتأكيد أيضًا – لم تذهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، والغالب أن لقب الحاجة الذي ارتبط باسمها جاء نتيجة لممارسة عادة قديمة في بلادنا، حيث يعلن الأب أو الأم نية أداء الحج المبرور إثباتًا لحمد الله لأنه رزقها بواحدة مثل جليلة ويظل الأمل في الحج قائمًا، حتى يندثر مع مرور الأيام وتوالي الأجيال، ومنذ بكور إنجابها – وهي في اللفة – يربطان اسم الطفلة الوليدة بلقب الحاجة، حتى يصبح جزءًا من اسمها، بل وأحيانًا يدل لفظ الحاجة على القصد مباشرة دون أن يرتبط بالإفصاح عن اسم جليلة، الحاجة جاءت أو خرجت، نعم، طول عمر الحاجة جليلة واسمها يصعب نطقه – أو يستحيل نطقه – دون لقب الحاجة، ولعله من المناسب هنا أن نشير إلى حالة أخرى أكثر دلالة، وهي أن المقدس عبد المسيح – واسمه على اللسان – سيحة – كان متزوجًا من الحاجة ست، والحاجة ست مسيحية قبطية نصرانية، والست هي السيدة في اللغة الشعبية المصرية، لماذا لم يقولوا المقدسة ست؟

ستكتشف يا صديقي أن إيقاع (المقدسة ست) يصبح مختلا ومضطربًا، أما الحاجة ست فهو أكثر امتزاجًا، وانضباطًا، لقد أطلق المسلمون عليها اسم الحاجة ست دون وجل، ولم يكونوا في موقع السخرية إطلاقًا، مع أن أي وافد للقرية كان يتناقش كثيرًا في ذلك، في المقابل فإن كثيرين – وكثيرات – حصلن على لقب المقدسة والحاجة دون زيارة لبيوت الله الحرام، من بينهم كانت الحاجة جليلة.

أبو الحاجة جليلة رجل طيب، لم يكن فلاحًا ولا يحب الزراعة، إنما كان تاجرًا للحبوب، وبالذات (الحياقة) أي الحلبة التي نستخدمها نحن الفلاحين في ضبط طعم خبز (البتاو) بإضافة نسبة معينة من دقيق الحلبة إلى دقيق الذرة الرفيعة – النيلية، وكان للحلبة في بلادنا تجار مختصون بعيدًا عن تجارة كل الحبوب كالقمح والشعير، وكان أبوها قد أنجب عدة بنات أخريات بعد إنجابه الحاجة جليلة، وقد تزوجن جميعًا فور بلوغهن، كانت الحاجة جليلة هي أمهن القائمة على شئونهم فور رحيل أمها خلال وباء الملاريا الذي داهم المنطقة قبل حرب فلسطين الأولى، وكان نجاحها في تزويج أخواتها البنات نعم كبرى جديرة بالإعلان الدائم عنها،

كانت الحاجة – في ذلك العصر – تخرج من بيتها ومعها واحدة – أو أكثر – من أخوتها، هي التي تشتري اللحم من الجزار مع أن ذلك كان مقصورًا على الرجال، وهي التي تشتري الحشيش للأرانب من سويقة الحشيش، وهي التي تذهب لإنهاء أمور ومصالح البيت عند بقال التموين وصانع القباقيب، وهي التي تذهب فتزور من تزوج من إخوتها، ثم هي التي تطبخ وتنظف البيت، وهي التي تعلق تلك الصور العريضة على حوائط البيت: صور أبي زيد الهلالي سلامة وقد شج بسيفه رأس دياب بن غانم، بغض النظر عن عدم المطابقة التاريخية، ثم هي التي كانت تحب الصور الملونة التي شاعت في تلك الفترة عن الأميرات فوزية وفتحية وفايزة ونسل شاه والملكات فريدة وناريمان، كانت (آخر ساعة) و(المصور) تنشران تلك الصور على الأغلفة فتقوم بالحصول عليها وتلصقها بمادة عجين الحلبة – نعم الحلبة – مرة أخرى – على الحوائط المطلوسة بالطين الناعم، وكان أبو الحاجة جليلة يحب ذلك، ويتكلم دائمًا عن فرح شاه إيران مع الأميرة فتحية، والذي رأى – فيما يقول – جزءًا منه في القاهرة.

عندما كانت الحاجة جليلة تسير في الشارع، فسوف تلتوي أعناق الجميع، يعرفونها ويبتسمون ويقولون بسم الله الرحمن الرحيم، ليس فقط بسبب جمالها، بل لأن جسدها شامخ مكتنز يعطيك إحساسًا غامرًا بالقوة والثقة. وهو ما جعلها تسير في أناة ترقب اضطراب الأرض خشية الحفر والبقع الطينية، وسواء أكانت في يدها واحدة من أخواتها، أو بعد أن تزوجت جميع أخواتها، فإنما خطوتها الواثقة الأليفة، وعيونها حينما تتجه لآفاق الطريق، يجعلك تتساءل لماذا لم تتزوج حتى الآن؟ وأليست الحاجة جليلة أفضل مليون مرة من هؤلاء اللاتي تزوجن؟؟ لا أحد في القرية إلا وتمنى الحاجة جليلة، والغريب أن التناقض يصل إلى مداه حينما نكتشف أن الجميلات ذوات الشخصية القوية تتساوى مع الدميمات ذوات الشخصية الضعيفة في سوء الحظ، هل يخشى الرجال – اقتناء – أو مصادقة – مثل هذا الجمال القوي؟ – خصوصًا أن الأمر لم يتوقف عند مجرد المشاوير إلى السوق أو الجزار أو بقال التموين، إذ أن الثورة الناصرية جاءت ومعها انفتاح كبير للبنات، كل مخازن البنات في قريتي تقلصت وأفرغت محتوياتها إلى المدارس

والمؤسسات والتدريب على التمريض، حتى الوحدة المجمعة المنشأة حديثًا ألحق بها وحدات لصنع الكليم – السجاد البلدي، واتجهت إليها أطفال القرية، وكانت الحاجة جليلة قد خرجت من بيت أبيها إلى حديث الأمور أكثر جدة وتنوعًا، حضرت لقاءات هيئة التحرير في بيت إسماعيل كامل، وحضرت احتفال القرية بزيارة عضو مجلس قيادة الثورة أنور السادات، ثم الاحتفالات المتوالية التي قامت بها المدارس امتنانًا للثورة ورجال الثورة، ثم خرجت الحاجة جليلة إلى حلقات الاتحاد القومي في بيوت الأثرياء الذين قامت الثورة ضدهم، وحضرت الحفلات التي غنى فيها الشيخ الفخراني، كل شيء في القرية كان يتغير بسرعة مذهلة، توقفت جولات الثأر، والمشاجرات المسلحة، والمصادمات الدامية، وكثر المدرسون والموظفون، والتهمت الجامعات القريبة أبناء القرية وبدأت تفرزهم مهندسين وأطباء ووكلاء نيابة، بعدها، وفي لحظة قدرية غريبة، جاءت النكسة أو الهزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧، والذي سوف يكون أخطر الأحداث التي مرت لها مصر في العصور الحديثة ...

- ٣ -

كانت هزيمة مصر – بالذات – قد جاءت تتويجًا لدعاء سري دائم ومستمر ضد عبد الناصر من الفلول الهاربة للجماعات الدينية، لم يقولوا ذلك أيامها، أول من قال ذلك الشيخ محمد متولي الشعراوي الذي أعلن أنه صلى ركعتين بجوار الكعبة شكرًا لله لأنه أحاق الهزيمة بالنظام المصري، هذا ما صرح به في أجهزة الإعلام منذ سنوات قليلة، لكننا – أيام الهزيمة – لم نكن نعرف شيئًا ذا بال عن هؤلاء الذين اعتصموا ببيوت الله ليلحق بالوطن الهزيمة المنكرة، غير أن قريتنا واجهت موقفًا – واجهته كل القرى أيضًا: تضخم الجيش وسحب كل الفتيان من المصانع والمؤسسات والحقول ليعوض ما تم تدميره من بشر، واضطربت الحاجة جليلة اضطرابًا شديدًا، انصدت نفسها وانكسرت وبدأت تستتنيم للجلسة وراء النافذة، كانت النافذة في أول الأمر مفتوحة، والساحة الواسعة أمام النافذة تعطيها المدى اللازم للنظر إلى الآفاق البعيدة، وكانت الحاجة جليلة تجلس وراء النافذة المفتوحة لتتفرج على الليالي الكبيرة التي تعودت قريتنا إقامتها، أذكر منها بين أكتوبر وآخر ديسمبر ثلاث ليال،

أي بعد جمع محصول القطن وتسويقه مباشرة، ليلة السيد البدوي – والذي مقامه في طنطا وسط الدلتا، وليلة السيد الفرغلي – والذي مقامه في أبو تيج جنوب أسيوط مباشرة، وليلة للشيخ أبو العيون – أو واحد من مشايخ منطقتنا – وتبدأ الليلة عادة بعد العصر مباشرة حينما تتجمع طوابير المشايخ الصوفية تحت وقع الطبول ورقص الخيول – في دورة استعراضية – تحت ظلال الرايات الخفاقة، وبعدها – قبل المغرب – يكون أصحاب الكرامات من المشايخ والأولياء وورثة المشايخ والأولياء قد توزعوا على طبالي – جمع طبلية – أهل البلد، إذا أن كل صاحب وعد – أي كل صاحب اتفاق بينه وبين أحد الأولياء في الحلم أو العلم – قد نصب الطبلية أمام الباب – أي في الشارع، ليأكل عليها أبناء الطريقة الصوفية، فيتجمع الناس دون اهتمام بأي طريقة ليأكلوا ويضحكوا، ثم يتوجهوا – بعد ذلك – إلى الساحة الكبرى، تلك التي يكون قد تم تجهيزها بأنواع اللهو والألعاب: المدفع الذي يندفع بتأثير قوة الذراع، المراجيح والخيول الخشبية، باعة الكنافة والبسبوسة والهريسة والسمسمية والفولية والعسلية والدردمنة (نوع من الدولسي

الذي تعرفه أجيالنا) والمشبك والفطاير وسكر النبات وغيـــر ذلك من أنواع لا نراها في أي يوم في قريتنا إلا يوم الليلـــة، لكن الأكثر جمالا هو نصبات المغنيات والغوازي، إذ كثيـــرًا ما يأتي من الغروب – أي البلاد الواقعة غربًا تحـــت ســـفح الصحراء الغربية – جوقة من اللاتي يقمن بالغناء والتطريب مع استخدام الأغاني الشائعة في الحالات التي يصعب عليهن أداء السيرة الشعبية حسب اختيار جمهور الجالســـين علـــى الأرائك، أما الغوازي فقد كانت أجسادهن تتـــراقص لتثيـــر الفتنة في قلوبنا، كانت وجوه الغوازي وخدودهن قد تألقـــت تحت عمليات الدهانات ومساحيق التجميل، كن جميلات بحكم المغايرة والاختلاف وليس بسبب جمال أصيل فـــيهن، وكنـــا نحن العيال، أو الفتيان، أو الرجال أكثر إلحاحًا على المتعـــة بمشاهدة الغوازي، وما يقمن به من حركات فجـــة مدهشـــة تحت تأثير ما يحدث من النقطة، إذ كثيرًا ما يبـــالغ بعـــض رجال القرية في تنقيط الغوازي في نشوة احتســـاء الزبيـــب والعرقي وكل المستخلصات المسكرة التي تفنن في الاتجـــار لها أمين أبو علة، وحتـــى الكينـــا التـــي يبيعهـــا أصـــحاب الصيدليات في المركز القريب تجد بها دورًا في إثارة النشوة

اللازمة لرفع حالات التبرع القصوى، هذا الهياص والطبل والزمر والصراخ والمتعة والبحث عن العيال التائهين والرقص وخلع أجناب القلوب، يصنع لهذه الليالي طعمًا ريفيًا شعبيًا نادرًا ما تجده في أي مكان في الدنيا.

كانت الحاجة جليلة قد تقلصت وجلست وراء النافذة المفتوحة المطلة على الساحة الواسعة، تستمتع بأضواء الكلوبات وإطلاق النار والمرح، ثم رحل والدها بعد ذلك فقامت بإغلاق الشباك، وكمنت خلفه تنظر وتمعن النظر خلال خصاص وخروم مصاريع الشباك، لم يعد يزورها أحد، ولم تعد تزور أحدًا، كل الذي تفعله الحاجة جليلة أن تجلس وراء النافذة انتصارًا لطقوس ليلة جديدة ...

ثم لم يلبث أن أفتى أحد كبار المشايخ بأن هذه الليالي حرام، وأنها بدعة، وأن الدين الإسلامي ينهانا عنها، وحاول الذين يرون في هذه الليالي مرحًا شعبيًا أن يلتفوا حول فتوى الشيخ دون جدوى.

بعدها تقلصت الليالي، وبدأت تندثر وتصبح حكاية من الذكريات تستحلبها الحاجة جليلة – وهي جالسة وراء خصاص النافذة.

- ٤ -

ونسى الناس الحاجة جليلة، وسافرت أخواتها إلى مدن الخليج أو مدن مصر أو أية مدن، وتحولن – مع ليالي المشايخ – إلى ذكريات ...

قيل إنها كانت تعيش من نقود تركها لها أبوها، أو من معاش أتاحه لها أولاد الحلال، أو من هبات تصلها من أقارب أو أصهار أصابهم ثراء العصر.

وظلت الحاجة جليلة وراء النافذة، نمر عليها ونمعن النظر، ونحس بجمالها الأخاذ لا يزال جمالا أخاذًا، وأن الأيام لم تستطع أن تؤثر في حلاوة ملامحها ولا في طولها الشامخ ولا في عرضها المتناسق مع طولها ...

برغم أن أحدا لم يعد يذكرها، إلا أن كل واحد كان يعلم أنها في الموقع نفسه، وفي النافذة نفسها، وأنها ترانا جميعًا، وتبتسم لنا جميعًا، لا يستطيع فرد في قريتي أن يخترق الساحة الكبرى دون أن يحس بالحاجة جلية وقد رأته، وابتسمت بل وأشارت إليه.

ثم، وفي ليلة صامتة لا أثر فيها حتى لنباح الكلاب، في ذلك الوقت من السحر، أي في هذا الوقت الذي تكون

الملائكة قد هجعت والشياطين قـد لاذت بأوكارهـا، انـدفع صراخ القرية، صراخ بدأ في الساحة وداهم نقطة الشـرطة ومآذن المساجد ووسائد النائمين وآخر إرسـال للتليفزيـون وكراريس التلاميذ ومقاعد سهرات الفيديو ...

الحاجة جليلة هبطت مـن مكمنهـا وخرجـت مـن المنزل، مرتدية هذا الرداء الشهير للراقصات، وبيـدها دف ذو دقات مجلجلة وإيقاعات صاخبة، وانعكسـت الأضـواء الخافتة على فستان الرقص، الحاجة جليلة بجسدها السـامق وجمالها الأنيق، توسطت الساحة وبدأت ترقص، رقصة قوية تتأود تحت انكسار الصمت، ويهتز جسدها الأخاذ من الإيقاع فتهتز الأرض، وتنطلق العفاريت من بـين كـوات الـديار، وتندفع الملائكة من بين كوات السماء، ويتجمع الناس خفراء وعساكر ومستيقظين توًا من النوم، ويبدأ الجميـع يحـاولون احتواءها، لكن الحاجة جليلة كانت أقوى من الجميع، بـل إن الذين التفوا حولها وجدوا أنفسهم يصفقون، نعـم يصـفقون ليصنعوا للإيقاع حسًا جماعيًا، والحاجة جليلة ترقص وتتأود وتتمايل، وإذ بالساحة تضيء، ويختطف واحد الدف منهـا، ويبدأ فيواصل الوقع نفسه والإيقاع نفسه، والكل يغني لهـا،

ويصفق لها، ويندمج معها، ويدور حولهـــا، الســـاحة كلهـــا امتلأت بأنواع من البشر والحيوانات والملائكة والشـــياطين، والحاجة جليلة ذابت في الوجود، ذابت في أنفاس الكون، قـــد تلاشت، تلاشت، تلاشت الحاجة جليلة.

وبدأت الساحة تمتلئ بالضجيج الأحمق الأهوج، وكل واحد يزعم أنه شاهدها تـــرقص، فيؤكـــد الآخـــرون أنهـــم يصدقونه.

ومازلنا حين نمر في الساحة ننظر إلى النافـــذة، ذات المصاريع المخلخلة، نصفها مفتوح، ونصفها مغلق، لنـــزعم بأن الحاجة جليلة، لا تزال كامنة وراء المصاريع المغلقـــة، هذه التي لم تروها، مع أنكم تدعون أنكم تعرفونها، فقد كانت رؤيتكم لها سوف تصبح عاملا مؤثرًا في اختصار كثير من اللف والدوران، كي تروا جمالا نادرًا، مع أنكم تحبون دائمًا – أن تصفقوا لها، معتقدين أنها لا تـــزال – فـــي الحلبـــة – مندمجة في الرقص الساحر، مع الشياطين والملائكة.

أمير... الانتقام... الحديث

●● أجمل ما في العالم غير معروف حتـــى الآن، وهي مقولة تتمزق وتتناثر وتتطـــاير فـــي أنحـــاء الطفولـــة والحزن المبكر والحرمان والحظ ويسارب الحقول وظهـــور الحمير والأوهام وقطرات العيون وألوان الكتاتيـــب وبـــؤس الشتاء، ثم الدعاء المطرب الهامس شكرًا – وامتنانـًـــا. مـــن عيون الحب الأول، حين يبدأ أول احتكاك لنا مع تسبيلة هذه العيون قبل مرحلة الشقاوة والصبيانية بأسبوع كام.

لكننا – تحت ضغوط الكتب وشاشة السينما وصراع العائلات "الغلبانة بأي مقاييس" وانسحاق الجو الرائق تحـــت حوافر البرد القارس – الشتاء الفقير – نؤجل دائمًـــا أجمـــل ما في عالمنا لأيام مقبلة، وهي تلك التي تظل تداهمنا حتـــى نفاجأ بأنفسنا – مع مرور الزمن الوغد – كما وصفه أستاذنا مهضوم الحق سعد مكاوي – وقد التوت أعناقنا للخلف، بحثًا عما أفسد حياتنا وعمن أفسد حياتنا، كي نبرئ أنفسنا ونصبح شهداء أبرياء يجب أن تقام لنا شواهد قبور الشـــهداء، حتـــى لو كنا مازلنا نعيش ونملأ الأرض صراخًا واحتجاجًا، تتلبثنا روح الكونت دي مونت كريستو الذي أدى به الآخرون إلـــى

السجن فخرج لينتقم، وعليك أن تضيف إلينا هيتكليف بطل مرتفعات ويزرنج، ثم السيدة العجوز في زيارتها الممتعة لقريتها في رائعة الألماني دورنيمات، وكلها نصوص معروفة لا تحتاج إلى ثقافة عميقة "بالمقياس القديم للثقافة قبل مداهمة التليفزيون للجماجم وتفريغها من المعنى الحقيقي لها".

وإزاء كل ذلك، وتحت سطوة الهروب من كثافة جو العاصمة وخبث الأصدقاء ومكائدهم المكشوفة، مع أهمية هذا الذي اكتشفه الدكتور فؤاد زكريا أخيرًا – من أن ذائقة النقد الأدبي تتجه دائمًا – والآن – إلى مصالح خاصة بالغة الهبوط والأنانية الحديثة: ضيقة الأفق بالغة التراقص لأسماء تحقق لها أهدافها المحدودة، فؤاد زكريا قال ذلك بلغته المتحفظة، وهو ما أدى بي – مع ظروف أخرى – إلى الالتفات الدائم إلى الخلف، أنبش في حياتي عن هؤلاء الظالمين القساة الذين أفسدوا حياتي، وكأنني كنت سوف أصبح تكوينا آخر بالغ التهذيب والرصانة مثل جميع أبناء جيلي الموظفين وأصحاب الرتب، هؤلاء الذين يتحركون في هدوء وأناقة وحكمة ودقة، أنظر إليهم حين يبتسمون أو يريدون أن يبدوا رأيا – إن كان لهم رأي – ثم أنظر إليهم

وهم يمتطون ذواتهم وإحساسهم المفرط بأهميتهم القصوى، وهو ما أثبتت الدهور إنني لا أصلح له بالمرة، فكيف يمكن أن يتحقق ذلك لواحد مثلي لا يزال يجلس على كوبري البعيلي، يمص القصب ويأكل الجزر؟

لكن الأمر – أمري – بدأ يتدهور بسرعة، إذ حاولت مرارًا أن أعيد رأسي كي تنظر إلى الأمام دون الإمعان للخلف، فاتضح لي أن الأمر صعب، وأنني ما زلت رهن سجن قريتي الأبدي، وأن محاولتي الفكاك منه تحتاج إلى قوى أخرى لا أعرف كيف أستعين بها، ذات مرة عرفت – أثناء عملي بالسد العالي في أسوان – أن أمي تبحث لي عن عروسة من بنات الطبقة الوسطى أو العليا في قريتنا – هذه التي أكتب منها الآن، وأن أهل جميع العرائس المنشودات قد رفضوا دون أن يعلنوا الرفض الواضح، أنه الرفض المصري القروي الذي يتمثل في شروط تثير السخرية، واحدة لا تريد الذهاب إلى أسوان "؟؟ ... !!" – أرجو عدم إلغاء علامات الاستفهام أو التعجب أو الاستغراب – وواحدة تريد ألف جنيه مهرًا، وألفًا أخرى شبكة في عصر لم يكن المهر يتجاوز مائتي جنيه ومع إلغاء مسألة الشبكة بالمفهوم

القائم الآن، وواحدة يرى أهلها أن عملي في السد العالي ليس عملا حكوميًا أميريًا، وكل هذه حجج وعلل ومعوقات لا تريد أن تضع السبب الحقيقي في موقعه الحقيقي، إن عائلة آل مستجاب ليست في المستوى اللائق المناسب لبيت الفار أو الشناوية أو عبد الرجال أو عبد البر، دعك مما حدث لكل هذه العائلات – وغيرها – بعد ذلك أو أثناء ذلك، فلما عرفت بنيات أمي ثرت ثورة جامحة اجتاحت كل أنواع تاريخ العائلات بما فيها عائلة آل مستجاب ذاتها، إن واحدة من قريتي – في ذلك العصر – لم تكن تستطيع أن تتواءم مع حياتي القلقة المتوترة مهما كانت العروسة تملك أرضًا وعقارًا وحسبًا ونسبًا ووجاهة علمية أو اجتماعية قروية، دون الإفصاح عن هذا الذي ظل يفتعل في داخلي من أمور لن تكون في صالح أي طرف، وخصوصًا أن تجربة زواج غيري بالمقاييس نفسها ظلت – حتى الآن – مجرد زواج تحكمه بطاقة التموين وخضار المطبخ دون مواجهة حقيقة لما حدث في الدنيا بعد ذلك، إذ يكفي إنك – وفي النادر – لن تجد أثرًا لمكتبة وكتب وترحال من مكان لآخر – في أي

بيت من بيوت قومنا الأعزاء الشامخة بحوائط الأسمنت كأنها القلاع.

***

ومنذ سنوات فوجئت بنفسي أسعى كي أزور بيوت كل الذين كان بين قوسين في حياتي – حتى لو كانت أمي هي السبب، إنها رغبة عارمة للتفريج عما جال في خاطر أبطال روايات الانتقام، وكانت النتيجة مثيرة للمرح الذي حطم معنى الانتقام إلى مشاهد ضاحكة ... ومبكية أيضًا، واحدة تعاني من مشاكل تواجهها حفيدتها التي تزوجت مبكرة من حفيد لأحد الأصدقاء، وتتمنى أن تجد مساعدة من أحد ليوقف هذه المشاكل، واحدة توقفت فرحتها بلقائي العظيم عند طلب عمل لأصغر عيالها بصفتي كاتبًا له شهرة بين حكام الإقليم، واحدة كانت في حاجة إلى توصية إلى طبيب عيون حتى يعالجها بتكاليف معقولة – أو مجانية – في مستشفي الجامعة "كانت مصابة بالجلوكوما المزمنة – رحمتك يا رب" واحدة ماتت بمرض عضال قبل أن تتزوج، واحدة – تعيش في قصر ضخم – جاءت لزيارتنا مع رجلين من أولادها – الذين لا يعملون تحت سطوة الثراء، ولم تنتبه في شقتي

الصغيرة للمكتبة والكتب المصورة واللوحات، إنما الذي راعها أن ثلاجتنا من النوع المحلي وليست من ذات الماركات أو الموديلات التي تتألق على شاشة التليفزيون، واحدة – آخر الأمر – ظلت مع ابنتها واقفة على مدخل الشقة في حرج لا تريد الدخول والجلوس، من باب التهذيب المتخلف الذي ينص على إثبات دائم للاستغناء عن الآخرين وعدم التطفل عليهم إحياء لعقيدة قديمة حول حالات إثبات الشبع التي قد يجرحها احتساء كوب من العصير.

***

خلال تلك السنوات اتضح لي أن بطلا روائيًا حديثًا يجب أن يقوم في نص جديد، يسعى للعودة إلى موطنه الأصلي الذي عذبه كثيرًا كي ينتقم ممن عذبوه وحطموه ودمروه، وإلى غير ذلك من أنواع التخريب المأساوي الروائي، لكنه – حين يواجه الواقع الجديد- يكتشف أن الأمر لا يستحق كل هذه المعاناة، وأن كل عناصر الانتقام تتهاوى أمام هذه النماذج الطيبة الغلبانة، والتي كان من المفروض أن ترفع رأسي كي تتخلى عن النظر إلى الخلف وأن أرجع

فأنظر إلى الأمام، فما الذي يمكن أن تفعله في أبطال مثل كل هؤلاء الذين – أو اللاتي – ينامون ويتحركون في الذاكرة؟

ليصبح الأمر – بعد ذلك – مناسبًا أن أجلس على مشاهد كباري قريتي: أمص القصب وأتضاحك مع القوم، تحت سطوة حكمة أو تعزية للسلوان الدائم: أجمل ما في العالم غير معروف حتى الآن ... وإلى الأبد ...

الفهرس